رائحة حَبّ الهال

دار شرقيات للنشر والتوزيع

رائحة حب الهال

قصص

فدوى القاسم

الطبعة الأولى 2005
© حقوق النشر محفوظة لدار شرقيات 2005

دار شرقيات للنشر والتوزيع
5 ش محمد صدقي، هدى شعراوي
الرقم البريدي 11111
باب اللوق، القاهرة
ت 3902913 فاكس: 3931548
sharq_ca@yahoo.com

غلاف: هبة حلمي

رقم الإيداع 22586/ 2005
الترقيم الدولي: 8-217- 283-977 ISBN

رائحة حَبّ الهال

قصص

فـدوى الـقـاسم

دار شرقيات للنشر والتوزيع

إلى الذين أحببتهم
وأحبوني
إلى الذين ألهموني...
روحهم تسكن إلى الأبد
بين سطوري

دُنيـاك مـا أنـت فـيـه

كان يسمع عنه.. لكنه لم يكن يؤمن به.. التعارف عبر الكمبيوتر..

أي عـالم أحمـق ذلـك الـذي يسـمونه الإنترنـت؟! كـان يرفضـه تماماً، رغم أن أصـدقاءه يتحدثون بمتعـة واندفاع عن برامج الدردشـة، وعن الفتيـات اللواتي يلتقون بهن. أما اليوم.. واليوم بالتحديد.. فهو يشعر بوحدة شديدة، وحدة مؤلمة، وشوق قاتل لسماع حديث أنثوي دافئ.

لمـاذا اليـوم؟ مـاذا الـذي يميـز اليـوم عـن أيامـه السـابقة؟ وأيامـه اللاحقة؟ لا يعرف مـاذا حصـل اليوم، فالشـعور بالوحـدة يرافقه منذ زمن بعيد، اعتاد على صـحبته. يشرب قهوة الصـباح معه، ويقضـى معه ساعات النهار... وعندما يأوي إلى الفراش، يشعر بحدة وجوده بقربه.

ما الذي يحس به اليوم بالضبط؟ إنه الحنين.. ثمة حنين خاص.. شوق كبير لشعور غامض يفترض وجوده لكنه يفتقده.. صاح بصوت لا يدري إن ظل محبوساً داخل جسده.. أم أنه شق طريقه من حنجرته عبر شفتيه الجافتين..

يدفعه الشوق لحنان امرأة، إلى خوض مغامرة.. إلى الخروج عن النص الممل في حياته الرتيبة. ترك بيته مبكراً، وبدل أن يتوجه إلى المكتب، تسلل كاللص إلى مقهى الإنترنت، لا يريد أن يراه أحد، خاصة أصدقاؤه المقربون، وهو يدخل ذلك المكان، المشبوه بنظره.

كان المقهى خالياً، فتشجع وتخطي الفاصل الخيالي، بين عالم الواقع، الشارع وضجيج حياته اليومية، وعالم اللاواقع، الذي سيضع بين يديه، أجمل وأرق فتاة في حياته.. السايبرية. جلس أمام جهاز الكمبيوتر، وحملق بالشاشة، وانتظر. فحملقت الشاشة به، وانتظرت. احمر وجهه، حين لم يحدث شيء، وانتبه إلى أن يداً تحمل سيجارة بين أصابعها تهزه من كتفه، وسأله صوت إذا كان يعرف كيف يشبك مع الإنترنت. شعر بخجل شديد، ليس فقط لأنه لا يعرف كيف يشبك مع الإنترنت، ولكن لأنه شعر بأن صاحب المقهى يعرف، يعرف سرّه ويعرف وحدته، ويضعه في الخانة التي يضع فيها هو أصدقاءه، عندما يستهزئ بهم. تمنى أن يتحول إلى دخان في تلك اللحظة، ويتلاشى مع دخان السيجارة التي حطت على كتفه.

لـم يسـتطع الاختفـاء ولا التلاشـي، فتجمـد جسـده فـي مكانه، وترك نفسه تتعرف على الكمبيوتر من جديد، وتتعرف على شبكة الإنترنت ... وأخيراً، على برامج الدردشة، التي جاء من أجلها أصـلاً. لـم يتعرف علـى صـاحب المقهـى، لـم يسـأله عن اسمه، ولا عرّفه بنفسه، ولا طلب منه ذلك. لكن صاحب المقهى، أدار لـه ظهره، وطلب منـه إدخـال كلمـة السـر، التـي سيستخدمها ليتعرف عليه برنامج الدردشة.

كلمة السر؟! احمرّ وجهه مرة أخرى.. فكلمة السر تحمل معها معاني كثيرة، تشعره بالذنب، تشعره بخصوصية وغموض المشوار الذي أقدم عليه، تشعره بسريته ... شعور لا يخلو من الإثارة.

ترك وحده أمام الشاشة، التي استيقظت من نوم عميق، بعـد أن بلعـت كلمـة السـر الجديـدة. طلـب الدردشـة مـع أي شخص عشوائياً، لم يكن يعرف ماذا يريد أن يقول، أو حتى كيف يباشر الحديث، فترك الأمر للطرف الأخر. كان يرفض كل الرجال، ويقبل الحديث مع الإناث فقط.

أكل المقهى من صباحه ساعات، لم يشعر فيها بمتعة أبداً، بل على العكس، كان يشعر بملل وخيبة أمل. غادر وهو يشتم نفسه، وأصدقاءه، ويلعن صاحب المقهى، الذي بدا له أنه يراقبـه مـن بعيـد. تـرى هـل يسـتطيع أن يقرأ وقـع أناملـه علـى أحرف لوحة المفاتيح، كما يقرأ الأصم الشفاه؟

هجره، لمدة أسبوع، ولكن فكرة التعرف على فتاة تتحدث معه وتحنو عليه، لم تبرحه أبداً. فعاد إليه، في الوقت ذاته وبالشعور ذاته. جلس في مكانه، متى أصبح هذا مكانه؟ جلس، شبك مع الإنترنت، وبرنامج الدردشة، وانتظرته الشاشة بلهفة، فأدخلَ كلمة السر.

هذه المرة، انفتحت أمامه أبواب ونوافذ لم يكن يتوقعها. وجد أن أصابعه أكثر جرأة منه، تتحرك بسرعة، وتتحدث بحديث قلبه. سلم أمره لهذه الأنامل العشرة، أو بدقة أكثر، لسبابتيه، لأنه لو توقف فترة وحاول أن يصيغ حديثه بإرادته هو، لما استطاع...

مضت الساعات وهو في مكانه، أصابعه تتحدث وتشعل سيجارة من سيجارة، ويحوم حوله الدخان، ليس فقط دخانه، بل ودخان الآخرين الذين أخذوا أماكنهم بالمقهى، بدون أن يشعر بأي منهم.

على كل حال، لم يعد المقهى خالياً عندما يزوره، فقد لقي نجاحاً غير مشهود، ويحتشد فيه الشباب والصبايا، من أنحاء المدينة، يدخل كل منهم وحده، ويخرج وحده!! لم يعد هذا الموضوع يقلقه، لأنه لا يرى أحداً منهم أصلاً، مكانه خال بانتظاره، وهذا كل ما يهمه.

عيناه تضمران أغنية حزينة لرمال عطشى.. وصلته رسالة رقيقة جداً، شدته صاحبتها إلى الحديث إليها دون

غيرها. لماذا؟ لا يعرف. عندما تتحدث عبر الشبكة لا تسأل كيف ولماذا. لم تقاومها أصابعه، فتحدث معها دون غيرها. وبالرغم من أن الحديث كان سطحياً جداً في البداية لكنه شده بشكل غير طبيعي، وكأنه يعد بالمزيد من المتعة التي تنتظره لو أنه استمر معها... فاستمر واستمر... يجلس بالمقهى، محاطاً بالشباب والصبايا، ويجلس كل منهم، مثله، أمام جهاز إلكتروني، لا يشعر أحدهم بالآخر... يجلس بينهم، يشكو لها وحدته، وتشكو له وحدتها.

كان حديثهما يستمر طويلاً، ويومياً، وأياماً. أصبح الذهاب إلى المكتب صباحاً خروجاً عن نص حياته. اعتاد على صحبتها، فهي تشرب قهوة الصباح معه، وتقضي ساعات النهار معه... وعندما يأوي إلى الفراش، يشعر بحدّة عدم وجودها بقربه.

كانت تحدثه عن البحر والشعر، وكان يحدثها عن حبه للجمال في الحياة. كانت تسعد بانتعاشه لكلماتها، وكان يسعده فهمها له. كانت تطير وتحلق كالفراشة حوله، كانت حلماً طالما راوده، وكان هدية طالما تمنتها. يتحدث معها كأنه يعرفها في حياة سابقة، كأنها صديقة الطفولة، وأول صديقة حب، وأول عشيقة. وعندما يترك المقهى، يذهب إلى الشاطئ، ويتأمل في كلماتها، ويحس بنفسها وروحها، فيحتضنها بينه وبين نفسه، ويسعده احتضانها له.

ويعود، يعود صباح اليوم التالي، وبسرعة يشبك مع الإنترنت وبرنامج الدردشة، ثم... ثم كلمة السر، هذه الكلمة الصغيرة، هي مفتاح كيانه كله. بمجرد أن يدخل هذه الكلمة في الخانة الصغيرة، التي يظهر ويختفي بها خط أفقي رفيع يداعبه ويثيره ويدعوه إليها، وبمجرد أن تضغط أصابعه على بضعة أحرف، تصبح منى بين يديه مرة أخرى.

تذوب الساعات وتذيبه، تتبخر حياته، وعمله... لا يبقى شيء من يوسف السابق، لا يريد أن يبقى شيء من يوسف السابق. منى هي حياته وعمله، منى هي كل شيء. طلب صورتها، أرسلتها. قال لها إنها اجمل مما تخيل، وكان قد تخيلها فائقة الجمال. تركض أصابعه فوق لوحة المفاتيح، لا ينظر إلى الشاشة وهو يكتب إليها، يأخذ حديثهما شكلاً جديداً. يدفعهما الشوق واللهفة والوحدة، تجاه تبادل القبلات، عبر حرف إكس ×. يقول لها إنه يتمنى أن يراها أمامه، أن يقبل شفتيها، أن يمسك يدها، أن يشعر بجسدها... تجيبه بصمت.. هو وحده من يفهم أحاديث صمتها.. يقول لها إن صمتها هذا يثيره، وأنه يود لو يرى تعابير وجهها، يتمنى أن يشم عطرها، أن يروى عطشه وعطشها، للرفقة، للحنان.. للحب. يجيبه صمتها اللاهف.

بصعوبة يخرج من عالم الأحلام، الذي أصبح واقعه، ويخرج إلى الواقع، الذي أصبح كابوسه. يخرج من المقهى مع

إغلاقه، بعد أن يخرج الآخرون. يغلق صاحب المقهى الباب من خلفهم، يغلقه على آمالهم المسجونة، داخل أسلاك وذبذبات إلكترونية.

كيف يمضى وقته؟

يؤلمه أن الوحدة عادت ترافقه، ليس غصباً عن خيال منى، الذي لم يبارحه أبداً، بل بسببه. قرر العودة إلى القراءة لعله يشم رائحتها في حرف حط صدفة بين السطور. قرر أن يكتب، لعله يخلق حرفاً جديداً، يهديه إليها. قرر أن يذهب إلى السينما، وأن يبقى بعد نهاية الفيلم، ليستمع إلى الموسيقى التي بدت له تروي قصة الفيلم بنشوة غامرة. قرر أن يتفوق، لعله يستحقها. بين العمل والكتاب، بين قطعة موسيقى وورقة، أمضى الساعات ... ساعات انتظاره، وحركة عقرب الثواني في ساعته، تكّاته تنبض بأذنه باستمرار... متى اللقاء، اقترب اللقاء.

ولكن، أين اللقاء؟ كان لقاء اليوم، ولقاء كل يوم، منذ البداية، لقاء مع كلمات ملونة، تظهر حرفاً حرفاً، على شاشة الكمبيوتر. يحمل نفسه إلى هذا اللقاء، ويحمل حقيبة، تكاد تنطق شعراً، لما حملته من دواوين، ورسائل، وصور على ديسكات سوداء غامضة... ويحمل وحدته، لعله هذه المرة يرجع بدونها.

يدخل المقهى. يحتل مكانه. يشعل سيجارته. يشبك مع الإنترنت. يتردد كثيراً عند إدخال كلمة السر. كان كل لقاء معها زهرة تعبق بها رائحة الأمل، تبقى معه مدة احتلاله لمكانه. وبمجرد أن يترك المقهى تذبل الزهرة، وتتفتت أوراقها لتحملها الرياح بعيداً عنه. يركض خلفها، فهو راض حتى بالفتافيت.

قبل أن يعلم بوجودها، كان يتحمل أموره. قبل أن تدخل الإنترنت عالمه، أو بالأحرى، قبل أن يدخل هو عالم الإنترنت، كان يتقبل الأمور. لكن قدرته على التحمل تتضاءل؟ أصبح لا يعرف كيف يتعامل مع شوق وحرمان يحزان بين أضلاعه، رغم أنه قبل منى كان يعرف كيف يتعامل معهما. والآن لا يعرف كيف يعود لنفسه السابقة، تلك التي كانت تتقبل الأمور كما هي.

يتردد كثيراً. يعرف أنها هناك، على الوجه الآخر من الشاشة. أمضى نصف ساعة بدون حركة، يستنشق رائحة الزهرة. يدخل كلمة السر.

-"أينك؟ انتظرتك طويلاً"
- "هل تحبيني؟"
- "أحبك"
- "وأنا هل أحبك أنت؟ أم أني أحب ما ترمزين إليه من حب؟"

- "تحبني أنا وكل ما أرمز إليه من حب"
- "أريدك" تصرخ أصابعه."أريد أن أراك، وجهاً لوجه... أريدك قربي."
- "كيف؟"
- "لا أعرف كيف."

ترتطم كلمة "كيف" بصمت بينهما. أحياناً لا يصمت الصمت... وأحيانا، يكون الصمت أخرس، ثقيلاً، مؤلماً.

- "أخرجتني من وحدتي، وزرعتني في وحدتك."
- "كيف أخرجك؟"
- "مدي يدك عبر الشاشة.. المسيني..."
- "نادني من آخر الدنيا ألبي..."
- "كل درب لك يفضي فهو دربي..."
- "صوت حبي... أنت حبي..."
- "كفى" تصرخ أصابعه.. "كفى! كفى! كفى، لم أعد أحتمل، ماذا نفعل هنا؟ إنه عذاب يا منى.. عذاااب.. هل تفهميني؟ لماذا نستمر في هذا العذاب؟"
- "...؟؟؟؟"

أغلق الخط بعصبية. قذف ديوان فدوى طوقان في حقيبته، وخرج. لأول مرة يشعر بكبر حجم الديوان.

اغرورقت عيناها، وانسكبت دموعها على تتمة القصيدة. تثاقلت كلمات الديوان بين يديها، فأغلقته بحنان، وبصعوبة رفعته من حجرها.

وقفت منى.. اتجهت نحو الباب، فإذا بصاحب المقهى يفزعها بصراخه وشتائمه: "يلعن أبوه، ابن الحرام، وين راح ابن الكلب يوسف من غير ما يدفع لي". تلاطمت كلماته بكمبيوترات المقهى وتخبطت بجدرانه، رصاصة طائشة لا تقتل، تفزع، تخيف، وتقع أحرفها ساكنة عند قدميها..

❖

الـضرورات تـبـيـح الـمـحظـورات

(1)

كان راضياً عن حياته، وعن عمله. يستيقظ باكراً، فيجد قهوته بانتظاره، يشربها من فنجانه الأبيض المزخرف بألوان مائية خفيفة، فنجانه المفضل. وبعد أن يتناول إفطار خفيف، يلبس القميص وربطة العنق والبنطلون، واثقاً من ذوق زوجته، التي تختار ملابسه بعناية مرهفة، وتهتم بتناسق الألوان وانسجامها.

وكان سعيداً بزواجه، أو بالأحرى، لم يكن تعيساً. لقد أعجب بأسلوبها في الحديث، وبأناقتها، وأعجب بجمالها

وثقافتها. وعندما كانا يلتقيان، كان يشعر بإعجابها به. إذاً لماذا لا يقول إنه سعيد؟ لأنه اكتشف أنها، أي زوجته، بالرغم من جمالها وأناقتها وثقافتها، باردة !! باردة جداً. يقبّلها بحرارة، يلمسها وأنامله تشتعل شموعاً، وتبقى هي بادرة. يشعر بأنها تراعيه فقط، ولا تستمتع أبداً، بل يشعر أنها تنتظر بفارغ الصبر أن ينتهي منها، لتحتضن الملحف وتنام.

حاول خلال شهر العسل أن يداعبها، وأن يثيرها، وأن يجعلها تشعر بالمتعة التي يشعر بها. كان حساساً جداً، ويراقبها بدقة، ينتظر أدنى إشارة تصدر عنها فتعلمه بأنها غرقت مثله في هذا العالم الجميل، الذي يحق لها وله أن يغرقا به. ولكن شهر العسل مر، وباشرا حياتهما الحالية، بدون أن يستلم تلك الإشارة. بقى أشهراً يأمل باستلام إشارة، بدون جدوى. بدأ يشك بقدراته كرجل، ثم بدأ ينام متأخراً جداً، ثم بدأ يتركها تذهب وحدها إلى الفراش، لكي لا يراها بقميص النوم الأسود الشفاف. جمالها رائع، وجسدها رائع، ماذا يفيده أن يرى كل هذا؟

ابتعد عن زوجته ليلاً، وهو يتذمر بينه وبين نفسه، أن هذا يناسبها بالتأكيد، واشتري كمبيوتراً، بحجة أنه سيتمكن من إنجاز بعض من أعماله. طالما أنه لا ينام، فليستفد من وقته. في البداية، كان فعلاً يستخدمه للعمل، لكن سرعان ما تحول الكمبيوتر إلى مقهى تعارف، عبر برامج الدردشة الكثيرة،

المعروضة مجاناً على شبكة الويب. وتحولت شبكة الويب إلى كهف علاء الدين، تعج به المغامرات وأسرار الحب والجنس.

يجرفه التيار عند الإبحار من موقع لأخر. يفقد السيطرة، ويسبح في أجواء يكاد يغرق فيها بدون عودة. يسهر ليلاً، يتفرج، ويتعلم، ويناقش مواضيع يخجل أن يذكرها أمام أحد. لكنه هناك، شبح في عالم ليس له وجود، وليس فيه مكان للخجل أو الحياء.

(2)

يحاول أن يستيقظ مبكراً كعادته، ولكنه لا يستطيع. يستيقظ متأخراً، وبصعوبة، ورأسه لا يزال يبحر في الويب. قهوته باردة، إفطاره سريع، وربطة العنق يربطها في المصعد، بدون أن ينتبه إلى تناسقها مع قميصه.

لم يشغل بال زوجته التغيير الذي طرأ عليه، وباشرت عملها بالمنزل، فالغبار تراكم على الكتب، وشرائط الموسيقى، وألبومات الصور. أما الكمبيوتر، فلا غبار عليه. وقفت أمامه وتأملت ضرتها، حقاً إنها تفضل سهره مع الكمبيوتر، على طلباته الجنسية. ولكن، شدها فضولها إلى اكتشاف سر جاذبية الضرة. لم يأخذ هذا الموضوع من وقتها سوى بضع ساعات. كان بإمكانها التجول في تاريخ التصفح لكل المواقع التي زارها

زوجها، وكانت كلها متشابهة ومواضيعها محددة. توقعت أن تجد ما وجدت، فهي تحضن الملحف، وهو يحضن الكمبيوتر. الأمر الذي لم تتوقعه، هو أن هذه المواقع جذبتها هي. مواقع إباحية، بل إباحية جداً، تجذبها. أفزعها أن تجد نفسها تنقر بالفأرة، على كل صورة، وتقرأ كل كلمة.

أما هو، وبالرغم من الوقت الطويل الذي يمضيه أمام الكمبيوتر، فهو لا يجيد استخدام كافة أدوات برنامج التصفح. ولم يخطر بباله أبداً أنها أيضاً تجول الويب، وتضيع مثله في المواقع التي لا تترك للخيال مجالاً ليلعب بل تقدم للزائر كل ما يشتهي بدون غموض أو حواجز. كيف يخطر بباله أنها ترى ما يراه وتشعر بما يشعر، فقد هجرها منذ زمن وهجر فكرة انتظار الإشارة.

لا يشعر بها، ولا تشعر به. لا يجمعهما الفراش، تنام هي بالضفة الشرقية وظهرها له، وينام هو بالضفة الغربية وظهره لها، وبينهما مساحة كبيرة من الأسلاك الشائكة. منطقة حظر التجول، دفنت فيها الحسية، والحنية، والكلمة.

(3)

لم يعد يحاول الاستيقاظ باكراً. يخرج من الضفة الغربية، يتجه إلى الباب ثم إلى الحمام، بدون أن يفكر بالنظر إلى الصفة الأخرى، فقد اعتاد على وجودها اللا وجودي. يذهب إلى عمله متأخراً، ويرجع متأخراً جداً، أصبحت تروق له فكرة الإبحار بالشبكة من المكتب، بحرية وخصوصية أكثر، وبدون الشعور بالذنب، لوجود زوجته بالغرفة المجاورة.

فنجانه الأبيض التصق بالرف، الذي لم يتحرك منه منذ زمان، فقد كانت تبقى في ضفتها، متظاهرة بالنوم، إلى أن يخرج من المنزل. تقوم بما عليها من أعمال أوتوماتيكيا، بدون تركيز أو تفكير، ثم تتفرغ للإبحار بالشبكة.

شيء غريب يحدث عندما تستخدم برامج الدردشة، فالحواجز التي تفرضها الإنترنت، تزيل الحواجز التي يفرضها المجتمع. الانجراف والانحراف سهل، الانسحاب سهل أيضاً، وممكن في أي وقت. طالما أن الحروف فقط هي التي تلتقي، ولا تلتقي العيون. والحياة الواقع، مثلها مثل الروايات، تملؤها الصدف الغريبة. فيصدف ذات يوم، أن تبحر متنكرة من المنزل، وأن يبحر متنكراً من المكتب، وأن يلتقيا عبر برنامج الدردشة.

دردشا طويلاً، نالت إعجابه، على الأخص لانفتاحها على مواضيع الحب والجنس، وأثارته عندما علم أنها زارت بعض المواقع الإباحية، التي يحدثها عنها. كانا يتناقشان بحرية تامة بكافة المواضيع، ولكن الموضوع الذي كان بذهنه، وذهنها، هو موضوع التكافؤ الجنسي. فقد أبلغها أنه هجر زوجته، وأبلغته أن زوجها هجرها، وأنها الآن فقط، بدأت تكتشف لماذا. تصادقا في عالم الأشباح، وتغاربا في عالم الأجساد. يشكو كل منهما للآخر زواجه التعيس، ثم يرجع للبيت، ليعيشا زواجهما التعيس سوياً. ينتظر كل منهما، فرصة الخلود إلى الكمبيوتر، وإلى برامج الدردشة، وينتظران فرصتهما سوياً.

لكنه كان يشعر أنه يعرفها، وكان يخشى أن يكون على حق! إلى أن جاء اليوم، الذي جمع فيه جرأته، وقوته، وطلب منها صورتها، فلم تتردد، وأرسلتها له. ذهل، رغم أن صوتاً صغيراً بداخله كان يقول له إنها هي، إلا أنه كان يُكذّب نفسه. كذب عليها حينما طلبت صورته وقال إنه مضطر للذهاب. غير معقول أن تكون هذه المرأة الجريئة هي زوجته الميتة. أين كان حين حدثت المعجزة؟ أين كان حين خرجت من كفنها الجنسي؟

أما هي، فلم تتعرف عليه، كانت غارقة في اكتشاف نفسها، وكانت سعيدة بالصديق الجديد الذي تستطيع أن تناقش معه كل ما يخطر ببالها.

عاد يومها إلى المنزل باكراً، وطلب فنجاناً من القهوة، خرجت من الغرفة، وهو ينظر إليها خلسة. بدا له أنه يراها لأول مرة، أناقتها، وخفتها، وميلان جسدها. أحضرت له الفنجان الأبيض، تناوله منها. الفنجان خفيف ورقيق، ألوانه هادئة، لقد اعتاد على فنجان المكتب السميك الذي طبعت عليه إشارة الشركة. جلس يرشف قهوته ببطء. تلاطمُ الأفكار برأسه يكاد يُسمع عن بعد. ثانية يشعر فيها بالغضب الشديد تجاهها، كيف تجرؤ؟ كيف تتحدث بهذه الحرية مع رجل تعتقد أنه غريب؟ ثم يُهدئ نفسه، فهي لم تتحدث مع غريب، إنها تتحدث معه هو. لكنها لا تعرف أنه هو ! يسخر من نفسه، ويهزأ منها، ثم يهنئ نفسه على اكتشافها من جديد، ويعجب بجرأتها.

أصابه صداع شديد، فتوجهت إليه، وبدأت بتدليك جبهته ثم رأسه. أغمض عينيه. زحفت يداها إلى عنقه، وأكتافه، وظهره. نزعت عنه ربطة العنق والقميص، أحرجها عدم تناسقهما. شعر بيديها الساخنة تتحسس ظهره وأعلى صدره. كان يخشى أن يتحرك، فتنفك حبال السحر التي تلفه. استمرت في تدليكه، إلى أن قذف في ملابسه!

(4)

لم ينم ليلتها، فقد شدته فكرة جنونية، استولت عليه منذ أن أثارته زوجته. وعندما وجدها بانتظاره في الإنترنت في اليوم التالي، كانت الفكرة قد تبلورت في ذهنه. تخيلها جالسة في البيت أمام الكمبيوتر. ترى ماذا ترتدي؟ قميص النوم الأسود الذي يحبه؟ أم بنطلون الجينز وقميصاً أبيض؟

استدرجها بالحديث، وطلب منها الصراحة التامة. يكاد يموت لمعرفة شعورها بالذي حصل بالأمس، إلا أنه فوجئ بأنها لم تشعر بنتيجة تدليكها له. انكمش كثيراً، لقد ظن أن العالم بأكمله شعر به وبفرحته. تركها تتحدث دونما انتباه لحديثها، ودونما أن تنتبه هي لعدم مشاركته. يعاوده الشعور بالغضب منها، من نفسه. هاهي تخونه، معه! هل تُعتبر هذه خيانة؟ إنها فقط تتحدث إليه. ولكنها تتحدث إليه عن أسراره هو.

كان يريد أن يخبرها بما فعلته يداها، لمجرد أنهما كانتا دافئتين، لمجرد أنهما كانتا يدي امرأة مثلها عادت تنبض بهما الحياة. لكنه لم يستطع. فاكتفى بأن يقول لها إنه كرجل يعجبه أن تقوم امرأة جميلة بتدليكه.

(5)

يرجع إلى البيت متأخراً. يجدها وفنجان القهوة بانتظاره. بخجل تجلس بقربه. يشعر كأنهما في غرفة الاستقبال في بيت أهلها، وقد خرج الجميع من الغرفة بتعليمات من والدتها، وبدون معرفة والدها، لإعطائهما لحظة نادرة لا تخضع للرقابة. سكنه هذا الشعور بشدة، وبدأ بالفعل يتصرف على هذا الأساس. بقى مكانه طويلاً، يحملق في الرسومات على الفنجان. ينتظر أن تأتي المبادرة، منه؟ منها؟ لا يعرف، إنه ينتظر فحسب.

جاءته يدها ساخنة كالأمس، وحطت على يديه. كان يخشى أن يفعل أي شيء، فيخيفها، وتهرب منه. قبل يدها، ورسغها، وزندها، وكتفها، وعنقها ... ولم تهرب. حرارة وجهها تقول له استمر. بقى عند عنقها وشفيتها فصل الصيف كله، بأيامه ولياليه الحارة. كان يود لو يستمر إلى الأبد، ولكن فكرة اللعبة التي يلعبانها، بدون معرفتها، تثيره أكثر. توقف، توقف وهو يعرف أنها تريد المزيد.

(6)

"ماذا حصل بالأمس ؟"

"أردت أن أدلكه كما فعلت بالسابق، لكنه أخذ يدي وبدأ يقبلها إلى أن وصل إلى عنقي"

"ثم ماذا ؟ أخبريني ... أرجوك، ألم نتفق على الصراحة التامة هنا؟" هل فقد صوابه؟ إنه يشجعها.

"لا شيء ..."

"كيف؟ معقول؟"

"... هذا الذي حصل."

" لماذا منعته من الاستمرار؟" من أين له هذا الخبث؟

"لم أمنعه.."

"هل أثارك؟"

"نعم." كان يثيرها أن تتحدث مع هذا الرجل، عن الذي فعلته مع الآخر. كان يثيرها أن تذهب للبيت، وأن تشعر بالمغامرة تملأ أركان غرفتهما.

"هل أقول لك ما تفعلين معه كي يستمر؟" كان يثيره أن يشرح لها ماذا يحب، وأن يلعب دور المعلم والمستفيد في الوقت ذاته، وبدون معرفتها. تثيره فكرة تعليمها، وتثيره فترة

الانتظار إلى أن يرجع البيت، ويثيره الشعور بالترقب والشوق والتظاهر بأنه لا يعرف.

"قوووول ..."

يبحر في الإنترنت، يغوص في المواقع الإباحية، ويطلب منها تنفيذ ما يروق له، من هذه المشاهد. في كل مرة، كان يغامر أكثر. بتلذذ يصف لها أشياء غير مألوفة يريدها أن تفعلها مع نفسه الآخر، فتفعل ما يريد، ثم بتلذذ تصف له ما فعلت مع ذلك الآخر.

(7)

يستيقظ متأخراً، ينظر إليها، عارية بجواره. بشرتها ناعمة، وتلمع عليها حبيبات العرق تحت الضوء الفاتر. ينحني فوقها، يلتقط حبة عرق بلسانه، ثم أخرى وأخرى. يريد أن يروى عطشه بعرقها المالح. تتحرك، تستيقظ. لم يحدثها الآخر عن مثل هذا الموقف. كانت تحفظ كل كلمة عن ظهر قلب، وتنفذ بدقة كل ما يقوله لها. وكانت تنتظر أن يحدث أي شيء، لتسجله أيضاً بدقة، ثم تعيد لعب التسجيل، عبر الإنترنت، مع الآخر. ماذا عليها أن تفعل؟ أن تشعر؟ ليست لديها التعليمات. تتظاهر بالنوم وتتركه يستمر وحده. لا يستمر، يتوقف وينظر إليها، تحولت فجأة، إلى مجرد جسد عار. يشعل سيجارته. لقد سلبت منه هذه العلاقة هويته. لقد تاه وضاع بين أحضان

المرأة التي طالما انتظر منها تلك الإشارة، والتي تمارس الجنس معه بدون تحفظ، وداهمه الشعور بأنها ليست معه بالفراش، بل معه فقط على برامج الدردشة، وبين المرأة التي جذبته وأعاد اكتشافها من جديد، لكنها تمارس الجنس معه بكل مشاعرها، فقط عبر الإنترنت. بدأ يفتقدها هي، وأناقتها، وثقافتها، وحديثها، وكل جوانب شخصيتها، التي لفتت انتباهه إليها قبل الزواج. ماذا فعل بها؟ لقد سلبت هويتها هي الأخرى. لم يعد يتعرف عليها.

(8)

هي تظن أنها تحبه وتمارس حبها له مع زوجها الذي لا تدرى إن كانت فعلاً تحبه. باتت لا تريد الزيارات، لا تريد لأحد أن يدخل بيتها ويأخذ من وقتها. فدخول أي شخص بيتها، يبدو لها اقتحاماً لأفكارها يكشف خفاياها. لأنها هنا كانت تمشي وتفكر فيه. هنا مشت، ذهاباً وإياباً، تسترجع كل لحظة أمضتها معه، كل كلمة قالها وقالتها. تخشى أن يدخل الناس بيتها، وهي تعرف أن أفكارها، ومشاعرها هائمة بين الغرف، تصطدم بالحائط وتحوم حول الضوء، وتفوح رائحتها مثل رائحة العطر الذي تضعه من أجله، رغم أنه لم يشمها قط ... على الأقل، حسب علمها.

أهملت كل شيء، أهملت هواياتها، أهملت القراءة، والمطالعة، والمنزل، لأنها تراه لا ينظر إلى هذه الأمور. فهي تكون بانتظاره، عند عودته من العمل، حسبما طلب منها الآخر، فلا يرى شيئاً سواها. ولا يرى من المنزل سوى غرفة النوم.

(9)

يذهب إلى مكتبه، يحاول الابتعاد عن برامج الدردشة، ويفشل. لقد أدمنها. كيف كانت حياته قبلها؟ وماذا كان يفعل بدونها؟ يحاول التركيز على عمله وباقي أركان حياته، ليكتشف أن حياته ليس لديها أركان. حياته اقتصرت على الجنس! حياته ضبابية، أخفت بكثافتها ملامح كافة الحدود، وأصبحت مجرد ملء للثغرات بين الحديث عن الممارسة والممارسة بالحديث.

انتابته رغبة وحشية بالحديث فقط...إنه بحاجة للحديث عن كل شيء، عن أي شيء غير الجنس. يفتح برامج الدردشة، فيجدها بانتظاره، وقد أرسلت له رسائل عديدة، تبعث في نفسه الاشمئزاز. يهرب منها، ويلبس قبعة الإخفاء، ويبقى على الخط. ترسل له رسالة تلو الأخرى، يلغيها بدون قراءتها.

لا يعرف لماذا يبقى. يحدق في اسمها أمامه. يشعر كمن قرر التوقف عن التدخين فجأة. يغلق ويفتح الخط عدة مرات، ويجدها في كل مرة لا تزال بانتظاره. لم يستطع أن يغلق كلياً، وأن لا يتحدث، وكان الحل أمامه هو التعرف على شخصية جديدة، عبر برامج الدردشة ذاتها.

هكذا، وبكل بساطة، دخلت سلوى على الشاشة. لم تكن سلوى، سوى إناء كبير من التفهم، صب فيه محتويات قلبه. لم تطلب منه شيئاً، ولم يطلب منها سوى الاستماع. لا يريد أن يتعرف على شكلها، ومداخل حياتها. تعمد الابتعاد كلياً عن مغازلتها، وفي بعض الأحيان لم يكن يعرف إن كانت فعلاً تنصت إليه أم تنام على لوحة المفاتيح.

(10)

لا يحاول الاستيقاظ باكراً. لا يحاول النظر إليها. يذهب إلى عمله متأخراً، ويرجع متأخراً جداً. عاد يبحر من المنزل بحرية، وبدون الشعور بالذنب، لوجود زوجته بالغرفة المجاورة. يتوقف عن الحديث مع زوجته، وتتدهور علاقتهما الفرجوالية، والواقعية. يقضى الساعات في الحديث مع سلوى... وغيرها وغيرها، أحاديث خالية من الجنس والمعاكسات.

هي انكمشت، وجفت، وعادت تنام وحدها، ملفوفة بكفنها الجنسي الممزق. لم يعد يتمني أية إشارة منها، يروق له أن تنام قبله. لا يشعر بها، ولا تشعر به، ولا يجمعهما الفراش. وبينهما كثرت الأسلاك الشائكة، ومنطقة حظر التجول.

(11)

يرجع إلى البيت متأخراً، فلا يجد فنجان القهوة، ولا يجدها.

❖

اسمع ولا تصدق

علمتني الدردشة على الإنترنت التعود على الكذب، ثم إتقانه. فلا أحد يرى العرق يتصبب من تحت شيب رأسي، ولا أصابعي ترتجف فوق الأرقام والأحرف الخاطئة. وكم كنت أحس بالشباب والعنفوان يرتدان إلي، عندما كنت أستطيع أن أقول إني ليست متزوجاً مثلاً، أو أني أبلغ من العمر 28 سنة فقط. وكم كان جميلاً أن أتلقى رزماً من الرسائل الإلكترونية، أكاد أشتم فيها عطور أنثى.

في الحياة الواقع، أنا حبة رمل في ساعة الرمال، تجري فأجري معها، ليس بمقدوري إيقافها. أما في الإنترنت، فلا ساعة ولا رمال. أنا أخلق نفسي بنفسي، وأؤمن بمخلوقي. إنها ألعوبة أمتع بها وقت فراغي، وأفرغ فيها رأسي من خواء يومي. ويصبح هذا الكمبيوتر بين يدي آلة لاختراق الزمن،

أرجع بواسطته إلى اليوم الذي كنت أقف فيه على طرف الرصيف، وأعاكس بنات الحارة بحرارة ونجاح.

اكتشفت كم أنا مبدع خلاق. فيوماً أكون سامي العلام، 25 سنة، الطالب في جامعة اليرموك، كلية الآداب. ذلك لأن سناء تعشق الأدب العربي الذي نسيته أنا منذ زمان. أجلس للدردشة وحولي الكتب التي اشتريتها حديثاً من مكتبة قرب مكان عملي. تلك المكتبة الحزينة، التي مررت بها مليون مرة بدون أن تحظى باعتراف مني بوجودها، أو بوجود صاحبها أبو ياسر، الذي يبدو أعتق من كتبه مترهلة الأغلفة. اقتنيت لأجل عينيها اللتين لم أرهما قط، مجموعة أدبية تليق بأكبر قراء العصر. كما اكتشفت كتباً جميلة عند أبو ياسر، تحت عنوان "رسائل الغزل"، و"رسائل طلب الزواج". أذكر أني ضحكت كثيراً حين رأيتها أول مرة، ولكنها أفادتني كثيراً ومكنتني من السيطرة على عالمي الحريمي الفرجوالي... ربما كان بإمكاني تأليف كتاب بعنوان "رسائل للدردشة"، أو ربما "كيف تقول ما تود النساء سماعه". وبعد فترة، اعترفت بوجود مكتبة أخرى على بعد أمتار من المكتبة الأولى، ذلك لأن سناء سألتني عن رأيي بمؤلفات مؤنس الرزاز وأحلام مستغانمي والطاهر بن جلون، الذين لم يكن لهم وجود عندي، أو عند أبو ياسر.

**

وأما مع هبة، فأنا رامي فقط. هبة لا تريد أن تعرف اسمي الكامل، لأنها تعتقد أني سأكذب عليها، ولن أعطيها اسم العائلة الحقيقي!! كما أنها تؤمن بعدم أهمية الأسماء منذ أن قرأت عبارة "روميو" المشهورة: تحافظ الزهرة على رائحتها العطرة مهما كان اسمها. وهذا يعني أنني، أقصد رامي، زهرة عطرة مهما كان اسم العائلة.

هبة تحب الدردشة من أجل الدردشة. لا تحب الغزل، أو هكذا تقول. لكني أشعر باحمرار وجنتيها عندما أخفي كلمة إعجاب بين سطور كلامي، علماً بأنني أخفيها بطريقة أضمن أن تجدها.

كنت أشعر بأن هبة طفلة نقية ساذجة. تريد خوض معركة الحياة وتخشاها. تجرني بالحديث، تمتحنني، ثم تبعدني. لا تعرف ماذا تريد مني. تتحدث كثيراً عن الصداقة بين الرجل والمرأة، كأنها العلاقة الوحيدة الممكنة بينهما. ولكن كلماتها تتدفق بالوحدة، وبالنشوة، وبرغبات لم أستطع حصرها. تريدني أن أبادرها أنا، وتريدني أن أتسلق إليها، لكنها لا تخفض حواجزها الشائكة إلا نادراً. وأنا، أنا أحس بكل هذا، و"أستهبل" عليها، أدعها تدور حول نفسها.

**

وأمينة امرأة متزوجة، تظن أنها تكبر سامر، الذي هو أنا، بعشر سنوات على الأقل. إنها متحجبة لكنها لا تحجب

لسانها في الحديث معي. أشعر بوهج إعجابها بي، ويعجبني أنا ادعاء البراءة.

مسكينة أمينة، يبدو أنها قد ملّت زوجها وزواجها وحياتهما. تحدثني بكل صراحة عن خيبتها في زوجها، وعن إهماله لها، وعن كونها امرأة لديها رغباتها وشهواتها، مثل تلك التي تلبس "الميني جيب" و"الجينز" الضيق.

أليس الجنس غريزة، مثل الحاجة للطعام والماء؟ يستطيع العقل التحكم بها، ولكن ليس إلغاءها، لأننا كبشر نفنى بدونها. أو ربما هي مخطئة، ويستطيع البعض إلغاءها، حيث أحمد زوجها يأتي إلى البيت منهكاً من العمل، يأكل ثم يرتمي أمام التلفاز. لا يلغي أكل الفول والحمص، وشرب القهوة. "بيجامته" كانت مقلمة بالأبيض والكحلي، لكنها الآن أقرب إلى البيج والسماوي. يربطها على خصره بما يشبه حبل الغسيل، وتبقى الفتحة الأمامية، بدون إغلاق.

أخبرت أمينة بأني متزوج، فقط لأني شعرت بأن ذلك سوف يبهرها، ويزيدها إعجاباً بي. وعندما كنت ألمّح إلى إعجابي بزوجتي، أشعر بوهج الغيرة يخترق شاشة الكمبيوتر، فأبتسم لنفسي... "كم أنا داهية"!!

**

بدا لي أن قائمة "الأصدقاء"، والأدق أن أقول قائمة "الصديقات" لدي تكبر يومياً، وبعد فترة أصبح من الصعب

متابعة أكاذيبي التي تتوالد بسرعة، مثلما يتكاثر زوج من الأرانب في مزرعة فتنتهي بإيذاء صاحبها بتكاثرها!!

أذكر مثلاً ذلك اليوم الذي دخلت فيه بنقاش مع ماجدة. بصراحة، لم أندم كثيراً على خسارتها. إنها تلقي علي المحاضرات كلما التقينا عبر الإنترنت. لم تكن تتحدث، كانت تعِظ وتقرأ لي آيات قرآنية. لم تشدني شخصيتها إلى شراء الكتب الدينية، أو حتى فتح المصحف. ولكني نسيت أن شخصيتي معها كانت متحفظة. كنت تلميذها، استمع وأهز رأسي بالموافقة، وأحياناً لا اكتب أكثر من بضعة أحرف: "صحيح" أو "معك حق"، وأكون قد أوشكت النوم فوق هذه الحروف.

المهم، كان لساني ليلتها منفلتاً، بعدما أمضيت السهرة في أحد البارات، التي يباح فيها شرب الكحول. ورأيت امرأة متحجبة، جالسة مع زوجها (ليس من الصعب التأكد من أنه زوجها، كان يجلس ويشرب كأنه وحده، وتجلس هي أمامه، تراقب كل الفتيات اللواتي يراقبهن هو). أنا لم أستغرب وجود تلك المرأة هناك، رغم حجابها. وقلت لماجدة ذلك عندما التقينا على الإنترنت بعد عودتي من البار. ولم أعطها فرصة للجواب. قلت إنني لا أرى مانعاً من دخولها البار، المهم أن لا تشرب هي (راقبتها للتأكد). ليس لديها سلطة على زوجها، حتى لو أن الدين يقول إن بمقدورها، حين يتعلق الأمر بشؤون

الدين، أن تنصحه وأن تطالبه بعدم الشرب. ولكن المجتمع يقول إن ما يحق له في أمور الزواج لا يحق لغيره، فهو الرجل!

كما أعتقد أنه يحق لها أن "تشم الهوا"، ولو قليلاً، ولعل هذا هو مشوارها الوحيد طوال الشهر. ولم أسكت هنا بل أكملت قولي إن الرجل هو الذي يجب أن يلبس حجاباً على عينيه، لأنه هو الذي لا يمتنع عن النظر إلى كل مؤنث حوله، (الله جميل، يحب الجمال ...)، وهو الذي لا يحجب الأفكار الجنسية من التكوّن في رأسه (فهو رجل مسكين، وهذا ليس بيده)، وهو الذي لا يستطيع كبت شهواته، بل ولماذا يكبتها، فالمرأة هي التي تعرض مفاتنها على الجميع.. والحل طبعاً، هو أن يحجّب ما ملكت يمينه من النساء فتتحجب المشاكل وتصبح خفية، وبذلك ينسى بسهولة وجودها في خلوته هذه التي يخلقها، فيبيح لنفسه النظر بحرية إلى نساء الغير. هكذا نحن الرجال. أقول هذا كرجل يعترف بضعفه أمام المفاتن الشهية ولكن له عقل يلجمه.. أحياناً.. (كنت سكراناً وأنا أتحدث إليها).

جن جنونها، وكأنها هي الرجل وأنا المرأة "المتحررة" بأحمر الشفاه وأقصر الفساتين. أصرّت أن الحجاب يصون المرأة.. فسألتها: أليست مأساة، أن تصونها قطعة قماش، وأن لا يصونها ويحترمها الرجل؟ هل يخفي "الإغراءات" خلف

الستائر السوداء لأنه يعرف أن إيمانه ليس بالقوة التي تمكّنه من مقاومتها إن رآها؟ وإذا منعنا وأخفينا "الإغراءات" كلها، هل نستطيع أن نعتبر أنفسنا مؤمنين ما دام ليس ثمة ما نقاومه ونختبر به إيماننا؟

على كل حال، خسرتُ ماجدة، وكما قلت لم آسف عليها، أو بالأحرى لم أعتبرها خسارة. كنت أريد أن تأتي القطيعة منها هي، وليس مني أنا، فمن غير المعقول أن أقطع "رزقي" بنفسي!

لكني تعلمت درساً هاماً، وبسببها اضطررت إلى إنشاء قائمة خاصة، أدون فيها اسم الصديقة واهتماماتها، واسمي أنا واهتماماتي معها، وسني وغير ذلك من معلومات عن "مخلوقي" خوفاً من تكبد خسائر قد أندم عليها.

هذه القائمة التي من أجل إعدادها تعلمت استخدام برنامج "إكسل" أصبحت سلاحي، لا أدخل برامج الدردشة بدونها. ألصقها أمامي، فتمنحني الثقة اللازمة للتحدث مع ثلاث أو أربع صديقات في آن. والحق أني كنت شديد الإعجاب بنفسي!! فلا واحدة منهن كانت تدرك أني أتحدث مع غيرها. كانت الشخصية التي ابتدعتها من أجل كل منهن، تعطيها القدر المناسب من الاهتمام، الذي تتطلبه. وكنت أقرأ

آرائـي بـتمعن وإعجـاب، أكثـر ممـا كنـت أقـرأ آراءهـن، وكنـت أتخيل وقع كلماتي عليهن.

كم كنت أشعر بفخر ومتعة عندما تأتيني فكرة أجدها رائعة، أو جملة "رهيبة" تفجر قنابل الإعجاب نحوي.

لماذا استمررت مع ماجدة أصلاً؟ لأنها كانت تحادثني أنا. (نعم، اكتشفت أن غروري كرجل ورغبتي باحتكار الانتباه لي وحدي لا يختلف عن غرور النساء اللواتي أتحدث إليهن). ولأنه في بعض الليالي لا يوجد غيرها "سهران" مثلي، وكنت أريد التواصل مع أي كان ... طالما أنها أنثى طبعاً.

المهم، تغيرت الأسماء في قائمتي مليون مرة، خلال سنة. وأنا ألعب بالصديقات، كالذي يلعب "الطرنيب" بمهارة. ألقي كرتاً، وأسحب غيره، ألعب به وألقيه. أفوز بإعجابهن بي، ثم أملّ منهن.

كلهن، إلا لميس. لميس استمرت معي منذ البدايات. كانت مميزة وذكية جداً، وكانت ترهقني كثرة أكاذيبي معها. كانت لميس، ثالث أو رابع واحدة أتعرف عليها عبر الإنترنت، وكانت بياناتها في بطاقة التعريف كاملة وصادقة. لقد تحريت من ذلك بنفسي، فهي تسكن في مدينتي نفسها.. لكنها لا تعرف ذلك طبعاً. سألت عنها في شركتها، وجمعت عنها

بعض المعلومات البسيطة، مثل اسمها الكامل (لميس الجامعي)، طبيعة عملها (محاسبة)، ودوام الشركة (من 7 صباحاً وحتى 3 بعد الظهر)، وأنها غير متزوجة (أهم معلومة).

وبرغم فضولي الذي دفعني للتحري عن لميس، لم أرغب أبداً بدمج العالمين. ولكني وجدت نفسي أهتم بأدق تفاصيل الواقع الآن، من أجل استخدامها مع الصديقات. لم تعد علاقاتي الاجتماعية علاقات إطلاقاً، بل دراسات وتجارب. أخرج فقط من أجل تجميع المعلومات، والملاحظات. كم كنت أستمتع بالمراقبة و"التلصص". ولم أستثن أحداً. أستمع إلى المناقشات والأحاديث، وأتفرج على التصرفات، أراقب لغة الجسد، ورقصة الاقتراب والابتعاد من الآخرين، حركات اليدين، وعلى الأخص تعابير الوجه والعينين. معلومات هامة أخزنها بدقة في أدراج معنونة في رأسي.

كما أني لم أرغب يوماً بلقاء أي من الصديقات، خصوصاً مع تكاثر الشخصيات التي تسكنني، وخوفي من إظهار حقيقتي أمامهن. كنت أشعر بأنهن كتب شيقة، أقرأ منها بضع صفحات كل يوم. وكلما كانت الكتب أكثر تشويقاً وإثارة تباطأت في القراءة وامتنعت عن حضور "الفيلم"، واعتمدت على تلك المعلومات المختزنة في أدراجي، التي تملأ لي الفراغات بالطريقة التي تعجبني أنا، بحيث أكون أنا المؤلف والمخرج ... وبطل "الفيلم" طبعاً.

بعد البحث في أدراج رأسي، استقر خيالي على أن لميس ليست جميلة. لماذا؟ لأنها وصلت سن 32 وهي غير متزوجة. لأنها ذكية ومثقفة.. "انحيازات" شرقية، أعترف، ولكنها جزء مني.

ولكنها، أي لميس، تتمتع بنوع معين من الجاذبية، والثقة بالنفس (وهذا أيضاً يزيد من اقتناعي بأنها غير متزوجة). لم تكن خجولة، ولا متحفظة، ولم تكن منفتحة. كانت تتحدث معي، ببساطة، وبصراحة، وبكبرياء مميز، لا يكابر ولا يجرح، يصعب علي وصف طريقتها في الحديث. ورغم أني في البداية لم أعطها الكثير من الاهتمام، إلا أني أصبحت بعد فترة لا أفتح برامج الدردشة إلا من أجل أن أرى اسمها يضيء، لأعرف أنها على الخط. لم أعترف بهذا لنفسي، كنت أتحدث مع الجميع، ولكني كنت، رغم استمتاعي بإعجاب الباقيات، أبقى على الخط أطول مدة ممكنة، فقط من أجل فرصة التحدث إليها.

وعندما كنت أرى اسمها يضيء، أحتار لثوان عديدة. كنت أود لو أنتظر لتبادرني هي بالحديث، ولكن صبري كان يفشلني في كل مرة، فأبادر أنا. كنت أتمنى أن تصلني أية إشارة منها تدل على أني في نظرها مميز، ولكن كبريائي وذكاءها يحرمانني من استخدام الأساليب نفسها التي كنت

استخدمها مع غيرها، واستدراجهن بالحديث للوصول بهن إلى ما أتوق إليه من إعجاب.

نفذ من وقتي أشهر، قبل أن أتمكن من تحويل الحوار إلى الحديث عن الحب مع لميس. وإذا بها تخبرني عن خطيبها.. "أووه شت"..أصبت بالإحباط الشديد. من أين جاء هذا الخطيب؟ شعرت بأنه يغلق علي باب الدخول إلى مشاعرها، ولكني أقنعت نفسي أن هذا هو سبب عدم شعورها بي. كنت أتوق ألى الشعور بإعجابها بي، وكانت رغبتي شديدة بكسر لامبالاتها والوصول إلى أعماقها، والإقامة هناك لأتمكن بعد ذلك من لعب "الطرنيب". أصبح الموضوع أساسياً جداً بالنسبة لي، وكأن لا معنى لهذه اللعبة بدون تحطيم كبرياء لميس.

أين زوجتي من كل هذا؟ أعتقد أنها كانت موجودة، لأن شعوري بوجودها قربي كان يريحني، ويبعث الاطمئنان في نفسي، ويعفيني من الشعور بالذنب، كأن كل ما أفعله بحضورها مباح، ما دمت أفعله بحضورها. كما أني أشعر أحياناً، أن تأثري بالحلم أو الإيحاء أو ما أختزنه من شهوة في ذاكرة الحلم والإيحاء يعينني معها، فهو أقوى من تأثري بواقع الأحداث.. وهذا أيضاً يعفيني من الشعور بالذنب.

ربما مشكلتي أن الحياة الواقع، لا تستغرق مني وقتاً للتأمل والتفكير، والحديث مع نفسي. ربما مشكلتي أني لست سوى حلم يُحلم.. والأحلام لا تكلّ الطيران.

وهكذا بقيت أمام لميس، حلماً حائراً، مكسور الجناح. كنت أختنق كلما تحدثت إليها بدون أن أحظى بكلمة أو تلميح بإعجابها بي. كانت لميس تغيب عني أياماً، فأحترق غضباً وغيظاً وحزناً على نفسي. لماذا لم تبهرها كلماتي ومعرفتي وأفكاري ... حتى وإن كانت مستعارة من الكتب؟؟.

أصبح اللاعب بين يديها لعبة. أنتظر كل يوم أن تلقي بي في سلة القمامة، أو أسوأ، في قائمة "المخفيين" لديها، بحيث لا ألحظها في قائمتي حتى ولو كانت على الخط، فأبقى أنا على حافة الرصيف أنتظر كمن ينتظر عشيقته تحت هطل الأمطار، فيما تنعم هي بدفء ذراعي غيره.

هل أعشقها حقاً؟ طبعاً لا! أعشق فكرة العشق، عندما أغلق (بصعوبة..) خط الإنترنت، أنساهنّ جميعاً، وأنساها، وأعود حبة رمل في ساعة الرمال.

❖

أرقُ من رقراق السراب

(1)

وأخيراً جاء يوم الأربعاء. التقيا وجهاً لوجه بعد طول انتظار.

كان مشوارهما قد بدأ، قبل ستة أشهر، في منتديات الدردشة. وفي إحدى غرف الحوار الخاصة، حيث عرّت أمامه روحها. لم يخطر ببالها أنها ستأخذ منعطفاً جديداً، وأن الطريق سيلتوي بها فيأخذها إلى تفرعات تفاؤلية متهورة. لم يخطر ببالها أنها ستضيع.

فقط عندما رأته أمامها استطاعت أن تتنفس مرة أخرى. ارتمت في حضنه، كأنها تعرفه الدهر كله. أول مرة تراه، وعرفته فوراً. عيناه، ابتسامته.. إنه عاطف، واقع وليس خيالاً، رجل دافئ، حنون، رقيق، كاسمه.

قبّل يديها المرتجفتين. قبّل عنقها. ذابت بين شفتيه. احمرّت ونضجت أمام عينيه. ببطء عذب معذب، حرر جسدها الرطب من سجن ملابسها. أطلقت عبيرها كفاكهة شهية وقعت آخر قشورها إلى الأرض. وبعطش شرب رحيقها الأنثوي.

استنفذ. مات وعاش. ذابت، وامتصتها خلاياه. كانت أول مرّة بالنسبة لها، لكنها كانت معه بدون خجل، بدون خوف، بدون تردد. كأنها كانت له في حياة سابقة. حدسها يرشدها عبر مساحات رجولته. كم كانت رائحة جسده مثيرة ومخدرة.

(2)

أخيراً جاء الأربعاء. التقيا بعد طول انتظار. ارتمت بحضنه. قبّلها. حررها من ملابسها. استنشقت أريج جسده. لم

تفلت منهما ثانية. كأن الوقت اختصر نفسه. بالأمس فقط كانت الساعة 60 دقيقة كاملة، ماذا جرى لها الآن؟ اختُزلت الساعة، ولم يتبقّ منها سوى بضعة لحظات، تكفي لسيجارة مشتركة. كانا يشعران بأنهما في منأى عن فعل الزمن.

أصبح لقاء الأربعاء تواطئياً، اتفقا عليه، دونما اتفاق. ينتظرها وتنتظره. يلتقيان بدون الحاجة لترتيب اللقاء. يجدها إن أتى، وتجده إن أتت. كوخ مهجور على حافة الأمواج، تختلط فيه أملاح جسديهما. لا شئ ذا أهمية يحدث بين الأربعاء والأربعاء. لا شئ سوى ملء الخواء بين لقاء ولقاء. كم كانت بطيئة تلك الأيام، وخاطفة تلك اللقاءات.

(3)

أخيراً جاء الأربعاء. التقيا. قبّلها. جلست في حضنه، وغنت لهما مياه البحر المائج. حدثها عن أول كتاب قرأه باختياره. كان لكاتب كولومبي، لم يكن يعرف كيف يلفظ اسمه.

حدثها عن أول قبلة شاهدها في السينما، وكيف هجم جميع أبناء صفه لمشاهدة الفيلم، وأنه لا يذكر الآن اسم الفيلم ولا قصته.. لكنه يذكر تفاصيل القبلة بوضوح، وأنه حاول عدة مرات تقليدها مع صديقاته. كانت تجمع كلماته، زهوراً برية، تنمو حيثما تشاء، وتضعها في إناء لا تتعكر فيه المياه.

كانت في حضنه طوال الوقت، وكان يمرر يده تحت شعرها، وعلى عنقها وظهرها، فتحترق برغباتها.. لكنها لم تبادره بها، تتركه يتحدث إليها كيفما يشاء.

(4)

جاء الأربعاء، والتقيا. جلست قربه. طبع على يدها قبلة روتينية. بدأ يتحدث عن طفولته وعن والدته التي توفيت منذ زمن بعيد، بالكاد يذكرها. حدثها عن والده الذي حاول تعويض حنان الأم، بالقسوة عليهم.

كانت تريد أن تحكي له عن الليالي المقمرة التي أمضتها وحدها، وعن وحدتها قبله. وعن مشاعرها عندما منحته نفسها. كانت تريد أن تشعر بأنها هنا بقربه، وأنه يشعر بدنوّها منه، تريد لشعور الوحدة أن يطلق سراحها.

لم يكن هناك مجال للمشاركة، تحدّث وحده، وتحدّث طويلاً، وصَمْتُ جسديهما يترك فراغاً ضبابياً بينهما.

يدها في يده طوال الوقت، دافئة، متوترة، مترقبة.. مثلها، ولكن هربت منها نظرة لساعة يدها.

(5)

جاء الأربعاء، والتقيا كالعادة. جلست كلمة "كالعادة" بينهما. لقد كان لقاءهما الخامس، أو ربما السابع.

متى بدأت اللقاءات تتبنى أرقاماً؟

قبلاته بلا روح، وحديثه يطول. شعرت بإلفة المكان. ثمة رائحة كريهة يطلقها البحر، والغبار يعلو حولهما عندما يجلسان على الكنبة. شعرت برغبة شاذة بتنظيف المكان، أو ربما بتحضير العشاء.

يلعب بها الزمن، فقد أصبحت الساعة الواحدة بمليون دقيقة.

(6)

مر الأربعاء، بدون لقاء. تحول الشوق إلى قلق، بعد آخر أربعاء. ترى هل انتظرها هناك؟ ترى هل سينتظرها الأربعاء القادم؟ وهل تذهب الأربعاء القادم؟

ذهبت. وذهب. الشعور بالذنب يحاصرها. ارتمت في حضنه وهي تشعر بأنها تمثل دوراً يتوقعه منها. قبّلها، خُيِّل لها بأنه هو أيضاً يلعب الدور المتوقع منه. لم يتحدثا عن الأسبوع الماضي. لم يتحدثا قط. مارسا الجنس أكثر منه الحب.

(7)

مر أسبوع آخر، على آخر لقاء. تمر الأيام بسرعة، بين الأربعاء والأربعاء، ويتباطأ مرورها ذلك اليوم تحديداً.

لم تذهب. توقعت أن يكون هناك، بانتظارها. تألمت لعدم رغبتها بالذهاب، تألمت وهي تتخيله بانتظارها.. أسبوعان

والندم يأكلها. ندم عدم اللقاء، وندم على أول لقاء. شعرت أنها تمشى إلى الأمام بظهرها، ووجهها دائماً ينظر إلى الخلف.

(8)

جاء يوم الأربعاء. ذهبت. بقيت في السيارة سنوات. رآها من خلف الشباك، وقد جعل نفسه خيال شبح، راجياً أن لا تراه. لم يستطع تحديد قراره بالذهاب هذه المرة. فقد مرت الأسابيع، بدون أن تكون له رغبة بالذهاب، رغم أن التفكير بالذهاب أو عدمه كان يشغله. وهاهو ينظر إليها عبر الزجاج، ربما كانت تبكي، أو ربما كانت مترددة لأنها لم تجده في المرات السابقة.

كان بوده أن يعتذر لها. كان بوده أن يرسل رسالة لها، "ماسج"، مثلما كان يفعل في منتديات الدردشة، حيث تعارفا. كان بوده أن يقول لها أن لا تحزن، وأنها رائعة، وجميلة. وأنها سوف تجد من هو أحق منه لتمنحه نفسها. كان يريد أن يكون خلف الشاشة، وليس خلف الشباك.

شعرت أنهما وصلا إلى نهاية تشاؤمية حزينة. من الذي سيبلغ الآخر قبل نهاية العالم بثوان؟

خرجت من السيارة. اتجهت نحو الكوخ، كم كان صغيراً، وملوثاً. وقفت أمام الباب، ووقف هو خلف الباب، يداه على المقبض ...

❖

لا عين تقشع،
ولا قلب يحزن؟

لدي سر. ولكنه ليس سري. إنه سر يمسني، وقع في حضني بدون أن أبحث عنه. ولكنه الآن في حوزتي، ولا أعرف ماذا أفعل به!

حتى تلك اللحظة، لم يكن للعالم الخارجي وجود، عندما أدخل بيتي، ألغيه كله، ولا يهمني سوى الذراعين الدافئتين اللتين تنتظرانني، وهذا الكرسي الذي يحتضنني، ويحفظ تضاريس جسدي.

كنت أشعر بالسعادة، لوجود شخص واحد في العالم، يسعده وجودي أنا بالعالم. حتى تلك اللحظة كنت أغفو قبل أن يصل رأسي إلى الوسادة. أتمتع بذلك الإحساس الرائع عندما تخدر فكرة النوم عقلي، وأجلس على حافة الوعي. كالريشة في الخواء أبقى لا أنتمي للهنا ولا للهناك.

فقدت ذلك الشعور، منذ أن اختار أن يبوح لي هذا السر بسره. يصعب علي كتمه بداخلي، ولا أريد أن يكتشف أنه بداخلي. هو يثقلني، أحاول قذفه من أعلى الجبال، فلا يقذف. يلتصق بي. أحاول أن أبرره، أن أخلق أسباباً لحياته، أن أتفهمه، أن أستوعبه ... وأفشل، أفشل، أفشل. لا أستطيع أن أتناساه، فكلما حشرته في أسفل أدراج عقلي تأتي حادثة صغيرة فتنقله إلى الدرج الرئيسي.

مشكلتي هي قوة الملاحظة التي تتملكني، إنها لا تفسح الطريق لمرور أي شيء. لا أريدها هي أيضاً، أريد أن أكون مثل باقي البشر، أكل وأشرب وأنام. أود أن أدع نفسي لمتطلبات الحياة، ليتها تقودني مثلما تقاد ... عمياء، صماء، بكماء. أريد للروتين الطبيعي الذي يملأ حياتنا أن يوهمني بأن حياتنا طبيعية. هناك سياسة تعلمتها منذ صغري، وهي سياسة "الطناش". إنها سياسة رائعة ساعدتني على التمسك بأملي في الناس، وأملي في الحياة. لا أعرف لماذا لا تنقذني هذه السياسة الآن. لقد "طنشتني"، ربما انتقاماً لكثرة ما صهرتها لطاعتي، فهي ترغمني الآن على طاعتها هي.

أية قوة أحتاج لكي أستمر؟ يتم تهميشي دوماً بالآخرين الذين يدخلون بيتي بدون إذني. أجد صوراً تم تنزيلها من الإنترنت. أجد قوائم أسماء لا نهاية لها تخص برامج الدردشة. أجد العديد من برامج الدردشة. أجد كلمات ومشاعر تحوم في

القرص الصلب ... كلها تسكن الآن في الكمبيوتر، في غرفة جلوسي.

غرفة الجلوس التي أصبحت لا أستطيع الجلوس فيها كثيراً. أنا بحاجة للحركة، للاستمرار، للتقدم ... أو حتى للعودة. أتأمل جدران هذه الغرفة، التي تشربت بشغف قطرات حياتنا. هناك خيط رفيع يلتوي حول الغرفة، من السقف وحتى حافة إطار الباب الخشبي، ثم يتشعب إلى الشمال، ويمر بسبعة بقع سوداء. عن قرب، أكتشف أنها ليست بقع على الإطلاق، إنما آثار لمسامير، كانت تقيم هنا، لكنها خلعت. هناك أربع صور على الجدار الآن، يمر بها هذا التشقق الرفيع، صور تجمعنا في أسبانيا وإيطاليا، واليونان ومصر ... ثم يعود ويمر بالكنبة التي اشتريناها سوياً، ولم تعد تجمعنا.

أحياناً أقترح على روحي، أن تبدأ من جديد. أقترح عليها أن تعتبر هذا أول يوم، تدخل به هذه الحياة التي أصبحت مملة، وكأنها كانت تدخلها كل يوم. كأن شيئاً لم يحدث، كأن هذه هي حياتها منذ أن تعرفت عليها ... لكني أفشل في إقناعها. فقط عندما لا نعرف من نكون نستطيع أن نبدأ من جديد، وأنا لم أستطع أن أنسى من أكون.

أيامي يوم واحد طويل، لا نهاية له. هكذا أقنعت نفسي، لأن هذا أرحم من أن تكون قد مرت بي كل هذه الساعات وكل هذه الأيام وكل هذه الأفكار. لا أطرح الأسئلة، ولا ألتمس

الجواب كي لا يضطر الجواب إلى الكذب. أنزف دماء شفافة، من جروح خفية، منذ أن اقتحم هذا الجهاز حياتنا.

وهذا الجهاز، مثلي، لا يحب الوحدة، والدردشة شغف أنسجته البصرية. فهو يجلس على المكتب، ينادي بصمت، ونداؤه دائماً مستجاب، ويشعرني بأن كل ما ظننته غير معقول، معقول!

ففي عتمة ممراته الإلكترونية اكتشفت معقولية الأمور. فهناك صمت تفرضه استمرارية ذبذباته المخدرة. هناك نوع جديد من الدفء، ينبعث عن تلك الطاقة الحبيسة داخل شاشته، طاقة تطلقها أطراف الأصابع عندما تلامس لوحة المفاتيح ببطء، وعندما ترتطم بها بلهفة. عندما تتطاير الأحرف ... وتصلني كلماتها. كل شيء معقول.

الحب عبر الأسلاك الإلكترونية معقول. حب يرسم بريشة ملل وأرق الحياة اليومية، التي تدفع إلى ابتداع حياة وهمية. والجنس؟ هو أيضاً معقول في ضباب المجهول، والغموض، والخيال .. والأسماء المنتحلة، والمستعارة. جنس من طرف واحد، لا يعرف شرارات لمسة يد الآخر .. جنس آمن .. كلٌّ في وحدته يوهم نفسه بأنه ليس وحيداً.

إذاً، لماذا يزعجني هذا السر؟ لماذا يزعجني وأنا أدرك واقعية وغير واقعية هذه اللقاءات؟ لأني أنا هنا، لحم ودم ...

أنا عينان تلمعان عند الحديث. أنا أنف يشتم العطر المختبئ في ثنايا العنق. أنا شفتان ترتجفان عند التقبيل. أنا دم ساخن يحتشد عند المباشرة. أنا روح تراها إن عرفت كيف تنظر. أنا هنا، لكني كأني وحدي هنا. وهذا الجهاز المخادع، يستنزف لحمي ودمي، ويتظاهر بالحياة. ينتصر علي. أجلس على الكنبة، أنادي بصمت، مثلما كان هو ينادي ... لكن ندائي دائماً غير مستجاب.

❖

بطانة من فضة

اليوم الجمعة. الساعة السابعة صباحاً. نظرت إلى ساعتها مرة أخرى، وتأملت عقارب الساعة. نعم، السابعة. لو كان يوماً آخر، من أيام الدوام، لما رأت تلك العقارب قبل أن تصل إلى الثامنة على الأقل. تسللت من السرير بخفة، وأطلت من باب الغرفة. ما أروع البيت في هذا الوقت! ما أروع هذا الهدوء! إنها تتشوق إليه من أسبوع لأسبوع.

جلست أمام جهاز الكمبيوتر، مثل كل جمعة، تخطط إبحارَ اليوم في الإنترنت. لديها على الأقل أربع أو خمس ساعات. أربع ساعات بالأسبوع لها وحدها. تبحر بين المواقع، ولا تشعر بمرور الوقت أبداً، حتى يهاجمها الأولاد بطلباتهم، ويخرج زوجها من دفء السرير بذقنه الخشنة، يطالب بقبلة، وبفنجان القهوة.

منذ أشهر، وهي تتطلع إلى وقتها هذا، تستقطب كل ما يحلو لها من هذا العالم الكبير الذي يصبح بنقرة الماوس بين يديها وبحجم الماوس!

ضغطت أزرار تشغيل الجهاز، وتثاءبت بانتظار الموسيقى المألوفة التي يطلقها الجهاز معلناً رحلة جديدة. ولكن، لا شيء يحدث. يبقى الجهاز مكتوم الأنين، وأسود الوجه. ماذا جرى له اليوم؟ اختفت تحت المكتب، تبحث عن خطأ في أسلاكه. فكتها وأعادتها، بخبرة وعناية أمّ تساعد أولادها في ارتداء ملابسهم. ابتسمت ابتسامة لوم. كيف يخطر لها أن تقارن الكمبيوتر بأولادها؟ ضغطت المفاتيح مرة أخرى بثقة ... لا شيء!

معقول؟! يبدو أن لا إبحار اليوم. تأففت منه، ولعنته. صوتها حطم مزاجها المعتدل. والساعة هي السابعة والثلث فقط.

نظرت حولها بضيق، يزعجها الهدوء الآن. يذكرها بوحدتها. وقعت عيناها على كتاب مفتوح مقلوب على المكتب. رفعته، فإذا به يبقى مفتوحاً على الصفحة ذاتها، يرفض أن يغلق. ربما تكمل قراءته، فتؤنسها شخصياته. اتجهت إلى الكنبة لتجلس، ثم توقفت.

أشباح حمراء، وذهبية، تتمايل بين الحائط والستائر، وأطراف الكنبة. مدت يدها، لتمسك أحدها، فإذا بها تتراقص على كفها. ثم دخلت نسمة هواء رقيقة، حملت أطراف شعرها، ورفعته عن كتفيها، فقفزت الأشباح من كفها إلى كتفيها العاريين. عبر الستائر، نظر إليها صباح جديد، بهيج، متألق بشروق الشمس وغموض ثيابه الضبابية.

امتلكها حنين قوي للحاضر.. حاصرها، أشعرها بأنها نمرة في قفص. تخطو من القضبان إلى القضبان. تمشي، وتحترق تحتها الأرض.. لكنها تبقى مكانها. خطر لها في لحظتها أن كل شيء في حياتها تقليد للحياة.

خرجت بدون أن تنظر خلفها. استقبلها هواء نقي، نسيت كم هو شهي، وهذا الغشاء الرمادي الشفاف، الذي ينشر طراوته الساحرة. وحين أغلقت عينيها، تزاحمت باقي حواسها، تسترق موسيقى الحياة المختبئة تحت رداء الهدوء المخملي. وجدت نفسها تركض. تركض فوق رمال حريرية، وبين زهور برية، تجمعت على هوامش الطرقات، ثم بين رشاشات المياه. رأت نفسها زهرة. آآآه ... أيّ شوق تنتظر به قطرات الحياة المنعشة هذه؟

حافية القدمين، يبكي جسدها دموعه المالحة، يتطاير شعرها محاولاً اللحاق بها. وعندما وصلت الشاطئ، استوعبت

رماله المكونة من حطام آلاف الأصداف البحرية المهجورة، وحلقت حولها شظايا الأمواج، بدون أن تمسها. ورفرفة أجنحة النوارس، إيقاعٌ سريعٌ، يحث ركض دمها داخل خلاياها. قفزت فوق تجاعيد أوجه الصخور. انساب سائل لزج ساخن تحت قدميها، والتحم بآثار تركها آخرون. لم تعد قدماها تؤلمانها. انفصلت حواسها عن جسدها، وتضاعفت في روحها.

لبت نداء البحر، كيف لا؟ تذوقت ملوحة جسدها فيه. كانت المياه تتجمع ببطء من الأفق، تحمل معها الأخضر، والأزرق.. وكل مشتقاتهما من اللازوردي، والتركواز، والأكوا مارين. تندفع أبداً إلى الشاطئ، ونحو السماء. تمنحها رغوة البحر البيضاء تاجاً رقيقاً، ثم فجأة، تنحني جميعها أمامها، فتملأ محيطها برذاذ ماسي، براق. كيف كانت تسمي ما تفعله عبر الإنترنت "إبحاراً"؟؟

ارتمت على الشاطئ، تركت للبحر أن يداعب ساقيها كما يحلوله، وللرمال أن تكسو ذراعيها. كأن الضباب قرر أن يدع البحر يمتصه أيضاً، فذاب بين شفتيه إلى أن تلاشى كلياً، وانطلق إلى السماء يعبئ الكون بصفاء شهواني. هاجت النوارس بهيجان السماء، وغنت له. لم يكن صوتها ضجيجاً كما كانت تظن. فقط مخلوقات الطبيعة تملك القدرة على تقدير الطبيعة بهذا الشكل. أما الإنسان فقد سرقته مخلوقاته واستعبدته.

عندما تذكرت أنها هنا، جسدياً، وجدت أن نصفها قد ذاب في الرمال المبللة. إنها مخلوق جديد، يتم تكوينه في لحظتها، يخرج ببطء من رطوبة الميلاد. تنزلق الرمال عنها داخل قطرات البحر الكتومة، ثم تلم نفسها، وتنسحب، مخلفة هالة من ... من ماذا؟ لم تستطع تحديد مشاعرها، أو وصفها، أو جمعها تحت مظلة كلمة واحدة، ولا حتى عشر كلمات. قناعة. استيعاب. حب. متعة. أمل. إيمان. إدراك. قوة. كلمات محددة الهوية بشكل محكم، والذي تشعر به الآن هو كل ما تسرب من هذه الكلمات المعلبة، غصباً عن التعليب.

حياتها كلها داخل هذه اللحظة، وهذه اللحظة باقية أبداً. لا تتحول. ليس بإمكانها التحول إلى لحظات أخرى ... ومهما مر من لحظات، تبقى هذه اللحظة، هي هذه اللحظة.

اليوم الجمعة. الساعة الحادية عشر صباحاً.

❖

قـمـيـص نــوم نــســائــي فــي الــمـريــخ

أستيقظُ.

الساعة لم تصل الواحدة ظهراً بعد.

أتجه من السرير إلى الحمام مباشرة. لا أغسل وجهي، لا داعي، فاليوم جمعة.

ولا داعي لتغيير ملابسي، سأبقى بقميص نومي القديم المريح.. ولو أن الدهر، والأولاد، أكلوا عليه وشربوا.

أفتح التلفاز، ألعب بجهاز التحكم، فأشعر بأني أتحكم بالعالم.

أبتسم لنفسي، جميل شعور التحكم هذا.

أتجول من قناة، لقناة، لأخرى، تشدني دعاية مسابقة كمال الأجسام، التي تقام سنوياً في لبنان.
يروق لي أن أتفرج على المتسابقين.. لا يرتدي الواحد منهم سوى مايوه صغير، بالكاد يفي بالغرض.. نسيت ما هو الغرض بالضبط؟

يعجبني بشكل خاص متسابق أرجنتيني.. تعجبني ابتسامته، والمايوه الأحمر الجريء – ترى أي مزيل للشعر يستخدم؟

ينتهي الإعلان.. فأتجه بجهاز التحكم إلى فضاء آخر، فأصل إلى "المريخ"، كوكب الرجال، حيث لا يوجد سوى الرجال، ولا يوجد رجل غير جميل.

أتعجب. من أين يأتون بهذا الكم الهائل من الرجال الوسيمين؟ ولماذا لا أراهم في الشوارع حولي؟ بالطبع أنظر حولي.. صحيح أني لا أحملق، لكني أستخدم عينيّ جيداً.

يستيقظ زوجي. يتجه مباشرة إلى الحمام. يمضي وقتاً طويلاً جداً هناك. قررت اليوم أن أراقب عقارب الساعة. أتجول بين القنوات، وتبقى عيني على الساعة. عشرة دقائق. ربع ساعة. نصف ساعة. ماذا يفعل؟ يخرج أخيراً. لقد مشّط شعره بعناية، وبشرته تلمع بنضارة (وبعض الكريمات)، ورائحته

عطرة. كل هذا، واليوم الجمعة؟ يدخل غرفة الجلوس، يرى أنني غارقة في كوكب المريخ، وعرض الرجال الذي لا ينتهي. ألمح في عينيه جرحاً.. ونظرة عتاب.

أغلقُ التلفاز، وأشير له بأن يجلس بقربي.. أحضنه، وأنا أتصفح مجلة أسبوعية، تعج بصور الفنانين، والمغنين، وعارضي الأزياء.

حتى إعلانات المستحضرات النسائية، يعرضها شباب وسيمون، بقمصان وبنطلونات ضيقة. يضيق بي زوجي.

أغلق المجلة. أرغمني شعوري بالذنب أن أصطحبه إلى أحد المطاعم. يريد أن يلبس هذا القميص الضيق جداً، لأنه "على الموضة"، يظهر تحته مفاتن صدره، وللأسف، استدارة كرشه.

أغلق فمي. كنت أود أن أقرّعه، لكني تمالكت لساني قبل أن تنزلق عنه الكلمات.

المطعم جميل، والطعام لذيذ، المشكلة أني نسيت أن جميع النادلين شقر، ومن روسيا!! رغم أني أكدت لزوجي (الذي أمضى نصف ساعة أخرى في الحمام، قبل أن يجهز للخروج، وأنا أنتظر بفارغ الصبر. لا ليس بفارغ الصبر، وإنما

بتفريغ علبة سجائري!!) أكدت له أني لا أحب الرجل الأشقر، إلا أني شعرت بغيرته تسبقني إلى المائدة، وتجلس في مكاني، واضطررت الجلوس فوقها.

أكثر من مليون مرة أكدت له أنه وسيم، وبأنني أحبه هو، وأن كل هؤلاء الرجال والشباب رغم جمالهم وجمال أجسادهم لا يعنون شيئاً بالنسبة لي. أكثر من مليون مرة..

أغلق المشوار الذي ينقلب إلى نكد، ونعود إلى البيت حيث نستطيع أن نمارس النكد بخصوصية أكثر.

يغلق الباب، ويحبس نفسه بغرفة النوم. أتركه. سيرضى ويعود بعد قليل، أو بعد كثير.. ونكرر قصتنا للمرة المليون.

أفتحُ التلفاز. أتفرج على مسابقة كمال الأجسام، لربما يفوز الأرجنتيني!

❖

البقعة

يجلس داخل البزة كحلية اللون، التي لم يلبسها سوى للمأتم من قبل. نظرات الناس تقيده وتقيده جلسته.. يشعر أنه كرسي صغير داخل كرسي كبير، تتدلى ذراعاه فوق ذراعين من خشب.

جلس الآن وفكر.. كان عليه أن يفكر قبل الآن.. لا يدرك متى أصبح دماغه كالغربال، تتطاير بداخله الأفكار وتتناثر كقشور القمح.. تتغربل كلها ولا يبقى في رأسه سوى قشور توقعات.

رأى المصور يقترب منهما، ليلتقط مجموعته من الصور الروتينية.. شرب من كأسها، وتظاهرت هي بالشرب من كأسه.. اضطر إلى تقبيلها بقدر ما يحتاج المصور.. وابتعد فوراً.

فاجأه محمود ياسين في فيلم رديء.. لا يحبه.. طالما قال عنه إنه ممثل يرفض بإصرار وعزيمة أن يتقمص أدوار شخصياته.. فيبقى هو ذاته وتموت كل أدواره خنقاً بشخصه!! يصعب عليه أن يفهم لماذا تتعدد أدواره. كان يتصوره يمضي إلى الأستوديو صباحاً، كمن يذهب إلى مكتبه .. تلتهمه ساعات الدوام، ثم يدلف إلى زوجته ليشكو لها عناء يومه.

وها هي زوجته. المرأة التي بمجرد أن قذف توقيعه على ورقة تعج بأحرف وأرقام، أصبح ملكها. هاهي إلى يساره تراقبه. تبتسم، فيبتسم معها المكياج بصعوبة، تاركاً خطوطه على وجنتيها، كإطارات شاحنة عبر صحراء قاحلة. تبتسم، فيبتسم الجميع. يبدو انه أيضاً مطالب بابتسامة. يحاول لكنه لا يستطيع. ترفض الابتسامة المثول عند طلبه، فتظهر مكانها فجوة، ربما هي فمه، بداخلها أسنان اصفرت من التدخين.

إنه حفل الزفاف.. لماذا إذاً لا يشعر بالفرحة؟!! ثم هل هناك حاجة لهذا الحفل السخيف الذي تكفل والده بمصاريفه؟ لو وضعت بجيبه تلك التكاليف، لكان أفضل! إن مجرد التفكير بالزواج أحدث ثقوباً مؤلمة في محفظته وجيوبه ويديه، وبالتأكيد في عقله!

كل هذه الثقوب حولته إلى منخل، والنساء يجدن استخدام المنخل!! واستطاعت والدته ووالدتها، رغم بدانتهن، التملص عبر الخروم الضيقة، ومعهن العروس التي تبدو رشاقتها كعبوة مؤقتة تعد بالانفجار في أية لحظة. تحول إلى

غربال "ستانليس ستيل"، من الطراز المميز، ذلك الذي يحتمل الحرارة والبرودة وغيرها من التقلبات النوعية والكيفية، بدون أن تظهر عليه الخدوش ولا الصدأ.

ليته صبر. ليتهم أمهلوه، أو أهملوه. ما أهمية سنه في هذا الموضوع؟ فهو رجل، والرجل لا يعيبه التقدم بالسن، ولا الشيب، ولا القبح، ولا الفقر. لديه شهادة جامعية من أمريكا.. هو "ابن ناس" و"آدمي" وأخلاقه حميدة، وستبقى حميدة مهما غبرتها السنوات.. لكن الله أعلم بما سيفعله غبار الزواج. موصفاته تعني أنه يستطيع أن يختار من يشاء من النساء. ألم تخرم والدته أذنيه بهذه العبارات مراراً وتكراراً؟ فلماذا الإصرار على الاختيار؟

ينظر حوله بعيون متعددة الثقوب أيضاً، فقد أصبحت كعيون النحل، منذ أن فرض عليه الاستقرار مع سميحة هذه. مئة عين وعين داخل عين. كل عين تترصد أي لمحة أنوثة مهما ضعفت تلك اللمحة. فها هي نجلاء تتمايل أمام الجميع. ما أجملها نجلاء. يود أن يرقص مع شعرها الأسود الطويل. لماذا لم يطلبها هي مثلاً؟ وهاهي سلوى.. ذات الجسد الرياضي، والشعر القصير. أيضاً جميلة جداً. ماذا لو طلب سلوى؟؟ وهاهي لورا، الشقراء الطبيعية الوحيدة التي يعرفها.

حتى لمياء أصبحت في نظره جميلة. ولكن ماذا كان سيتغير لو تغير خياره؟ لا شيء.. سيبقى محمود ياسين!

يذهب إلى بيته كالذي يذهب للمكتب.. يؤدي ساعات الدوام، ثم يعود لنفسه ليشكو لها عناء حياته.

تنتبه إليه سجانته. قرأ في عينيها تهديداً قد يعني حرمانه حتى من قليل المتعة التي بات ينتظرها بفارغ الصبر بعد معاينة إناث الحارة. ليس أمامه الآن سوى الجلوس، فجلس. جلس على الكرسي، كبقعة منسية، لم يحاول أحد إزالتها، لأن أحداً لم يشعر بوجودها .. ولكن، الويل لهذه البقعة، إن أحدث وجودها إزعاجاً لربة المنزل.

جلس على الكرسي .. كيان مثقوباً، بقعة مزعجة .. هو الذي ظن نفسه رجلاً.

❖

دمـاء الـضلـع الأعـوج

أجلس وأسند ظهري إلي حائط الجيران. أجلس على التراب بتحفظ كبير، وتلك الفوطة المزعجة، بحجم منشفة الحمام، تجلس بين فخذي. أخشى أن تراني والدتي فتصرخ بي. وأخشى أن تراني أم أحمد فتوبخني أمام الجميع، وتأخذني لأمي التي ستصرخ بي. ولكن أكثر ما أخشاه هو أن يراني أحمد.

بالأمس فقط، كانت ساقاي مثل ساقي أحمد، وكنت أجيد تسلق أشجار الزيتون، وكان حذائي يترك آثاره على جدار الجيران الذي ربما كان يوماً أبيض.

بالأمس كانت أم أحمد تشد أذني وأذنه، لأننا كسرنا جرة الفخار الكبيرة التي ورثتها عن جدها. لكننا هربنا منها، واختبأنا

أنا وأحمد كاتمين أنفاسنا وضحكاتنا، وكذلك رعبنا الذي أصبح أكثر إثارة لأننا نتشاطره سوياً خلف السور. كانت معدتي تؤلمني من شدة الضحك.

لكنـي وحـدي الآن، يلتصـق ظهـري بحـائط براءتـي، وتحاصرني دموع فرحة أمي وزغردة عمتي واستدارة جسدي. تؤلمني معدتي من شدة الألم، ويؤلمني ظهري. بالأمس كنت أحبه هذا الجسد، ولكنه خدعني. جسدي الذي ثار وانقلب ضدي، الذي أصبح الآن سيدي .. سجاني. تآمر عليّ وسرق مني متعة القفز من السطوح إلى الشرفة، وحرمني بساطة التربع فوق تراب الفناء بلا مبالاة، فرض التغير علي بدون إذني، بدون استشارتي.

إنـه يحجزنـي داخـل دورتـه التـي لا تعنينـي، والتـي ستحجزني لمئة يوم، ومئة ليلة، كل شهر.

تضيق نفسي بكل شيء، ودليل أنوثتي ينساب مني. الدليل الذي لا يثبت شيئاً بالنسبة لي سوى أني لم أعد، ولن أعود، مثلما كنت. أنظر إلى أعلى، فتبدو لي السماء وقد طارت عني، وأصبحت بعيدة، وأنا منذ الظهيرة أجلس داخل هذا البنطال، الذي تتكتل تحته تلك الفوطة اللعينة. لا أعرف إن كنت أنا لا زلت أنا؟ لا أعتقد، مع أنني أشعر بأنني أنا لم أتغير. أم تراني تغيرت فعلاً؟ بالتأكيد تغيرت، فمنذ متى أجلس أسفل الحائط، وليس فوقه؟

أجلس أرضاً لأخفي مؤخرتي، وأضم ركبتيّ بشدة لأخفي نهديّ. أشعر بنهر من ذلك السائل اللزج ينساب مني، وفجأة أتذكر بوضوح كلام سمعته عن جدول أحمر ليلة الدخلة، وبحر من الدماء يتدفق لمسح العار. إلى أين يجرفني هذا التيار؟ كيف انتقلت من عالمي إلى الإبحار هنا في ثوان؟

أشعر بالقلق.

بالخجل.

بالرعب.

ماذا لو تسربت الفوطة، وحولت بنطالي إلى مستنقع كبير؟

ماذا لو تصبغت حبيبات التراب من تحتي؟

ماذا لو تحداني أحمد بالركض الآن؟ كان كل ما أريده هو أن لا يسبقني من المدرسة إلي البيت.

لا أجرؤ على الوقوف.

أجلس وأنتظر اختفاء الشمس. أجلس وانتظر الظلام، لربما يمحو سواده آثار أنوثتي الحمراء.

❖

رائحة حب الهال

(1)

كشجرة جافة، يابسة الأغصان، غطت الثلوج شعره الجعد.

لفت انتباهي إليه تحوله الانسلاخي حينما تجتاح أنثى مساحة وجودنا الذكوري، فوجدتني أترصده في صالة الطعام يومياً.

تجتاحه الأنثى فيتوهج كيانه الجاف بالرطوبة، وتنسال أحرف ندية طرية من بين أنامله التي تصبح، بقدرة قادر، رشيقة شفافة.. تتمايل وتتراقص بغنج حسي ساحر.

حدود التشابه بيننا ضيقة جداً، فأنا متعدد الهوايات، وهو متعدد العلاقات. أنا أحب زوجتي، وزوجته أشبه بجارية في

حضرة سموه.. هي موجودة فحسب، وهو سبب وجودها. أما تواجدها فهو ثمن غلطته.

لذلك لا أعرف بالضبط كيف بدأت صداقتنا، إن كانت بالفعل صداقة. ربما بدأت حين أرضيت غروره، أو عندما أهداني غمزة شريك متواطئ. كنا نتبادل المجاملات الفارغة أثناء الدوام، وكذلك النكات ثقيلة الدم عبر الهاتف النقال، فأنا لم أجالسه أبداً، كنت أفضل أن أمتع نفسي بمشاهدته عن بعد.

لكني أذكر جيداً تلك اللحظة التي بدأت أشعر بحاجتي إليه. كانت ليلة خميس، وكنت كعادتي في البيت. اتصل بي على الهاتف النقال، وأبلغني أنه ذاهب ليلتقي فتاة تعرّف عليها في أحد المقاهي. وصف لي شعرها الذي يلامس بالكاد رقبتها الأنيقة، وحكى لي عن استدارة كتفيها، وعن الموسيقى التي يصدح بها جسدها عندما تمشي، وعندما تجلس، وعندما تضع ساقاً شهياً على ساق أشهى.

رسمت ملامحها داخل عقلي بريشة نبرات صوته، بدون الحاجة لملء الفراغات.. لم تكن هناك فراغات.. لم أبغضه، ولم أحسده، ولا تمنيت لحظتها أن أكون مكانه، فقط توقدتْ في محور كياني شعلة صغيرة، جعلت جسدي يرتعش كأوراق الخريف قبل سقوطها، وجعلتني أحس للمرة الأولى منذ سنوات عديدة أن أوراقي ليست خريفية لهذه الدرجة، وبأنها لم تسقط بعد.

كان أحمد يتحلى بموهبة مذهلة في وصف الأمور، أسلوب راق، شهي، مثير بدون ابتذال. ورغم أن فمي بقى مغلقاً حتى أغلقت الهاتف، فقد هيئ لي أن زوجتي سمعت كل كلمة لم أنطق بها. شعرت بالارتباك، بالذنب، بخوف لذيذ ممزوج بمتعة رهيبة.

ليلتها اشتقت لزوجتي كثيراً، اشتقت لمجالسة أنوثتها، اشتقت لمتابعة حفيف تلك الأنوثة التي نسيت كيف ومتى نسيتها. راقبت يديها الرشيقتين، اللتين كنت ألبسهما قفازاً من قبلات، وأناملها النحيلة الطويلة.

قبعت بقربها أستمتع برائحتها، كيف كنت لا أعلق عندما ينتقد أصدقائي زوجاتهم لأنهن يتعطرن ويضعن الماكياج عند الخروج فقط، اعتقاداً منهم أنهن يتجملن للمجتمع وليس لهم. أدركت لحظتها أن الحقيقة عكس ذلك تماماً. كل مساء، تجلس فتاتي عارية تماماً بقربي، بدون وجه اصطناعي، بدون عطر زائف، بدون تلك المفردات المبهمة التي تنتشر كالعدوى في الجلسات والزيارات. امرأة حيوية، صادقة مع مشاعرها، تغضب عندما يغضبها الموقف، وتفرح بعنفوان حقيقي، وتغفر لي أدق تفاصيلي الرتيبة، من ذقن خشنة، وشخير ليلي، وجوارب عطنة!

شعور غريب كان اشتياقي لامرأة تشاركني أوكسجين حياتي، كأني اعتدت رؤيتها، فلم أعد أراها، كأن حواسي كانت تخونني طوال سنوات عديدة.

(2)

رغم أني لم أعرف حتى النهاية سر الخيط السحري الذي جعله يتصل بي أنا بالذات، فقد تمنيت أن يكرر أحمد اتصاله، وأن يقذف نحوي فتات الساعات التي أمضاها مع تلك الأخرى. وعندما تكررت اتصالاته فعلاً، لم أعد أكتفي بنشوة الاستماع، ووجدتني أبتعد عن زوجتي، لكي أتطفل عليه بأسئلتي المحرجة التي كان يتلذذ بالرد عليها. كنت عبر مكالماته أتلصص عليه وعلى عشيقته، كأني أقف خلف باب غرفتهما، وكأن أحمد يتعمد تركه مواربـاً، أو كأني أسترق النظر إليهما عبر شرخ في النافذة، كما كنا أنا وأخي نفعل أحياناً أثناء طفولتنا.

بدأت مكالماته تطول وتطول. وبدأت زوجتي تغار وتغار. تدس يديها في جيوبي، وأنفها في كافة شؤوني، وتكثر الاتصال بي لأتفه الأسباب. تثور، وتريق غضبها أرضاً كزجاجة عطر تتناثر محتوياتها وتلتصق بمناخ المنزل لأيام. لم ألمها، ربما لأني كلما رجعت إليها بعد انتهاء مكالمة أحمد، كانت رائحتي تبوح بعبير حديثي السري، السحري، الغامض معه. أو ربما لأن حبيبات العرق الممزوجة بشعوري بالذنب تحمل رائحة مميزة، تشتمها رغم محاولاتي البائسة لإخفائها تحت غطاء حرارة ورطوبة الجو.

ظننتها تدرك أنني أتحدث إلى أحمد. ظننت أن لهفتي إليها، ستزيل شكوكها، لكنها كانت تتفاقم، خاصة بعدما بدأت

أمارس الجنس معها كالرجل الذي كنته في ليالي شهر العسل. لم أعرف كيف أشرح لها أن مغامراته تحيي بداخلي الرجل الذي قرأت عليه الفاتحة منذ زمان. كنت أستطيع خلاله أن أغوص في أعمق تخيلاتي، بدون المخاطرة بحياتي المنمقة. كانت قصص أحمد كرائحة حب الهال، تقتحم أنفي، فتتفتح خياشيم كياني توهجاً للحياة، وتعيد لقهوتي المسائية ولمساء سنواتي نكهة عبقة. هل ستتفهم أن أحمد هو أنا داخل حلم لا أجرؤ الاعتراف برغبتي في أن أحلمه؟

لم استغرب شكوكها، بل بالعكس، كنت أستمتع بغيرتها علي أحياناً، لأنها كانت تشبع غروري، وتؤكد لي أنني ما زلت مرغوباً، جذاباً. لم أجازف بمحاولات شرح أو تفسير، مؤكداً أنها ستفشل لكوني رجلاً، وكونها زوجة. تركتها تارة لحرارتي جديدة الاكتشاف، وتارة لظنونها تتأرجح رغماً عنها، لتتفاعل معي أخيراً بالأسلوب الذي أتشوق إليه.

(3)

أدمنتها.

ليست المكالمات، وإنما رذاذها المنعش الذي يلتصق بي، يلتهمني ويلهمني. وشاركتني زوجتي شعوري بالإدمان، بدون أن تعرف تفاصيله. فهاهو عبيرها ينساب من ثنايا

جسدها بانتظاري، وهاهو فستان جميل ترتديه بين جدران البيت وجدراني، وهاهي ابتسامتها، بريئة، وجريئة في آن.

أجمل ما اكتشفته هو أن رجولتي تسكن داخل كافة أعضائي، بعكس ما كنت أظن خلال سنوات مضت. نظرة مني تجعلها تحمر خجلاً، وتتورد شوقاً. لمسة يدي تذيبها. هذه اليد، التي باتت تحسب أنها خلقت فقط لتمسك القلم، أو لتحك ذقني دونما إشارة مني ... يدي أيضاً تملك سحراً. تعطي سحراً. تجني سحراً.

انسكبت متعتنا وتسربت من أنسجة الشراشف والسرير، وتغلغلت إلى الكراسي، والأدراج، والرفوف، والطناجر، والكوسا المحشي. اندلعت متعة اللقاء، أي لقاء، ومتعة القبلة على الجبين، والحديث، والجلوس إلى المائدة سوياً... وآلاف آلاف المتع الصغيرة التي نهرسها يومياً بدون تفكير، لنفيق بعدها بسنوات ونتعجب للفراغ الذي نلقبه حياتنا.

(4)

أما أنا وأحمد، فلم تتغير علاقتنا التي كانت حدودها كلماته اللاهثة، وذبذبات هاتفي النقال، ذلك إلى أن رجعنا إلى البداية، وبدأت قصصه تجتر نفسها، تلوثه وتلوثني.
أدركت ذلك.

أردت لـه أن يخـدعني، هـو لا يـذكر حديثـه معـي، وأنـا كنت أذكر تفاصيل التفاصيل، كنت أذكر كل صورة التقطتها من رواياته الخيالية.

تركته، دونما يتركني تأثيره.

رجعت أمتع نفسي بالنظر إليه في صالة الطعام، وهو ينسلخ، كما عهدته، عندما تداهمنا أنثي بوجودها بيننا.

وأبتسم.

❖

هـي مـن كـوكـب الــزهـرة ..
وهـو ولا هـون!!

الساعة 7:30 صباحاً – هي:

قبـل أن تفـتح عينيهـا، تفـتح "الموبايـل"، لربمـا تـرك لهـا رسالة أثناء الليل، أو أرسل لها كلمة حب على الريق.

يخيب أملها.

غير مهم. لا زال الصباح في بدايته.

تخرج من رحم السرير.

عليها أن تقرر ماذا ستلبس اليوم.

الساعة 7:35 صباحاً - هو:

في سريره .. يشخُر.

الساعة 7:40 صباحاً - هي:

تقف محتارة أمام الدولاب، الذي يكاد ينفجر بعبوته من الملابس.

عشر مرات نظرت إلى "الموبايل" .. وعشر مرات لم تجد شيئاً.

الساعة 7:50 صباحاً - هو:

يحلم بالفتاة التي رآها بالأمس في المعرض. جميلة جداً، وتتحدث معه وحده.

ساعة المنبه تدق للمرة الألف، وتفزع فتاة الحلم فتركض لتحتمي بين ذراعيه، ثم تتلاشى كالبخار، فالساعة مصرة على إزعاجه ..

يفتح عينيه، يضرب الساعة، يشتم العمل .. ويبتسم لفتاة الحلم.

تأخر كالعادة، ولا زال عليه أن يحلق ذقنه ... ليته يستطيع أن يطلق لها العنان، فلتزعج الآخرين بدلاً من إزعاجه هو، وبذلك يتحرر من هذا الروتين!!

الساعة 8:00 صباحاً - هي:

تقف عند إشارة حمراء أخرى. تنتهز الفرصة، مرة أخرى، لتضع بعض لمسات المكياج، ولتصفف شعرها.

مرة أخرى تلقى نظرة إلى "الموبايل" الأخرس.
مرة أخرى تلعنه .. هو و"الموبايل".

الساعة 8:20 صباحاً - هو:

لا يزال يربط ربطة العنق وهو يصعد تجاه المكتب. لقد جمع بالتأكيد أكثر من مخالفة سرعة هذا الصباح. أحياناً لا يعرف لماذا يعمل أصلاً .. فنصف دوامه يمضيه في القراءة أو الحديث، ونصف راتبه تجبيه الشرطة.

المدير غير موجود، ولكن الفرَّاش موجود. أو بالأحرى، جاسوس المدير. يدخل المكتب بثقة، كمن يحق له أن يتأخر. يحق له، نعم يحق له. فليذهب الجاسوس للجحيم..

الساعة 8:45 صباحاً - هي:

تحدق "بالموبايل" لتتأكد، ربما لم تسمعه. ربما كان يرن، وهي لم تسمعه. ربما ترك لها رسالة، وهي لم تنتبه .. ربما ..

يحدق "الموبايل" فيها بصمت. يتلقى الشتائم بصمت.

ثم، بحركة عصبية، تقرر أن تكتمه قليلاً .. فليتصل وليجد "موبايلها" مغلقاً. هي أيضاً مشغولة، ولديها أعمال، ومشاريع، و .. و ..

9:00 صباحاً - هي:

تنفى "الموبايل" المغلق إلى حقيبتها. فليتصل ويجد "موبايلها" مغلقاً، وفي حقيبتها.

9:05 صباحاً - هي:

تبعد حقيبتها عنها. فليتصل، ويجد أن "موبايلها" مغلق، وفي حقيبتها .. وبعيداً عنها.

9:15 صباحاً - هي:

تعيد "الموبايل" من منفاه إلى مقره بقربها.

هل تفتحه لثوان، لترى إذا كان قد اتصل، أو ترك لها رسالة؟ لكنه قد يتصل لحظتها، فيفسد خطتها، وتضطر أن

تجيبه. يبقى إصبعها فوق "الزناد" .. طلقة سريعة، تفتح فيها الهاتف وتغلقه .. قبل أن يتمكن من الاتصال.

تفتحه. تغلقه. لم تعطى الجهاز فرصة ليخبرها إن كان قد استلم رسائل أم لا.

تفتحه. تعد للعشرة، للعشرين، للمئة .. لا توجد رسالة.

تتظاهر بأنها نسيته مفتوح، وتلهي نفسها ببعض الأعمال. تغافله، لا تنظر إليه مباشرة، تختلس إليه النظر.

ويبقى "الموبايل" صامت.

9:30 صباحاً - هي:

لا تسمع سوى صمته هذا.

أين هو؟ ماذا يفعل؟ ربما يتحدث مع تلك الجميلة التي تعرف عليها في المعرض. ربما يدعوها للغذاء. ربما هو معها الآن. نعم، أغلق "موبايله" بالتأكيد كي لا تزعجه هي، كي لا تفسد عليه متعته مع تلك الأخرى .. كي لا تأتي صورتها بينه وبينها.

لا بد أنه معها في هذه اللحظة بالذات. تشعر بقلبها يخفق بشدة، بشدة، يحترق .. هذا الشعور لا يأتي وحده بدون سبب. أكيد، أكيد، أنه معها الآن.

هل "موبايله" فعلاً مغلق؟

هل تتصل به؟

قررت أن تتصل. ثم قررت أن لا تتصل.
ماذا لو لم يكن مغلقاً؟

10:00 صباحاً - هي:

سوف تتصل به. غصباً عن الخفقان، غصباً عن يدها المرتجفة. غصباً عن شوقها، غصباً عن غضبها .. وغيرتها .. ورغبتها في صفعه، وتقبليه .. ورغبتها في أن تبدو غير مبالية.

سوف تتصل. نعم سوف تتصل. ستتصل وتتحدث معه كأن شيئاً لم يكن، كأن شيئاً لم يحدث.

ستتصل ..

10:30 صباحاً - هي:

لا تتصل.

10:37 صباحاً - هي:

هاهى كافة أعضاء جسدها تعلن حالة التمرد عليها.

تغلق "الموبايل".

11:00 – هي:

تفتح "الموبايل".

11:05 – هي:

تتصل به.

"الهاتف الذي طلبته مغلق أو خارج نطاق الخدمة .."

ليتها لم تتصل. ليتها لم تعرف أنه أغلقه.

إذاً فهو بالتأكيد معها، تلك الحسناء، أو ربما مع غيرها.

11:07 - هي:

تتصل مرة أخرى، لتتأكد أنه بالفعل مغلق.

"إن الهاتف الذي طلبته مغلق ....."

تتأكد.

11:10 – هي:

تتصل مرة أخرى، ربما فتحه؟

ماذا تفعل لو لم يكن مغلقاً؟ ماذا تقول له؟

"إن الهاتف ... "

11:30 - هي:

معقول؟؟ لا يزال مغلقاً.

11:45 - هي:

مغلق.

12:00 - هي:

مغلق. مغلق. مغلق.

12:30 - هي:

مغلق.
ألم يعدها بالأمس بأنهما ستناولان الغذاء سوياً؟
هل تنتظره؟ قد لا يأتي. قد يكون منهمكاً مع تلك الفتاة..

12:50 - هي:

ستمنحه بضع دقائق فقط ..

12:51 - هي:

تتصل.
مغلق أو خارج .. الخ ... الخ ...
لن تمنحه ولا ثانية زيادة.

تقذف "الموبايل" فى سيارتها.
تقود بعصبية، فيقع "الموبايل"، ويعلق تحت كرسيها.
فليكن. إن كان لا يريدها، فهي أيضاً لا تريده ..

12:53 - هو:

لم يرفع رأسه ثانية واحدة، منذ أن دخل المكتب. لم يشرب قهوته، لم ينعم بسيجارة واحدة بهدوء ..
ينتبه أنه تأخر جداً عليها.

يفاجئ بأنه نسى أن يفتح "موبايله".
يتصل بها وهو يقود سيارته باتجاه مكتبها.

12:53 - هي:

يرن "الموبايل". ولكن أين هو؟؟
يرن "الموبايل". تبحث عنها بيسارها، وتقود بيمينها.
يرن ويرن. تبحث باليمن، وتقود باليسار.
تحاول الإمساك به بقدمها العارية ..
يرن، ويرن، ويرن بعناد ..

تصل أطراف أصابعها إليه .. يكف عن الرن ..
لا تستطيع إخراجه من تحت الكرسي.

"يلعن أبو الموبايل وساعته!! يعلن أبو السيارة، والزحمة.. ويلعن أبو الحب، وأبو كل الرجال، والمجنونات اللواتي يحببنهم أصلاً .."

تندم على قصر بالها، وأصابعها .. وظنونها، وشكوكها .. ولكن .. قد لا يكون هو المتصل!؟

1:00 - هو:

ربما انشغلت بأمر طارئ.

يذهب إلى منزله، يأكل "سنادويش" صغيراً، ويقرر أن يعود إلى حلم الصباح. سيأخذ غفوة، ويتحدث معها عندما يستيقظ.

يغلق "الموبايل".

❖

حـذ ا ء

(1)

وصل إلى المطار منذ ساعة فقط، وهو الآن مضطر للذهاب إلى المكتب.

كان متعباً جداً والظلام يغمره بالدفء، والكسل.

يقود سيارته ببطء متعمد.

يود لو أنه لا يذهب إلى المكتب.

يود لو أنه لا يذهب إلى المنزل أيضاً.

اليوم عطلة.

الوقت متأخر.

موقف سيارات المكتب خال ...

يغتنم الفرصة قبل أن تتسرب من عقله فكرة الجرأة التي تزوره نادراً، ويركن سيارته في المكان المخصص للمدير العام، السيد وجيه.

تحتل سيارته المكان بسهولة. يتمنى لو أنه يستطيع احتلال مكان السيد وجيه بالسهولة ذاتها.

يقف ليتأمل مظهر سيارته في هذا الوضع الجديد.
السيارة تأقلمت بسرعة، وبدت أكثر روعة وتألقاً.
أما هو، فلم يتغير، بقى متعباً، مرهقاً، قرفاً.

(2)

يدخل المصعد. يغلق خلفه تلقائياً، فيُحشر مع رائحته مزيج من دخان أربعين سيجارة يومياً، وبختين صباحيتين من عطر رجالي نسي اسمه، وعفونة مجهود تراكم في مكان ما بداخله لأنه أبداً لم يستخدمه.

لأول مرة ينتبه أن جميع الأزرار نظيفة، عدا زر الدور السادس... الطابق الذي به شركته.

تري هل هو السبب؟
ينظر إلى أصابعه.
نعم، أصابعه متسخة جداً، ولكن مم؟
وهل هي هكذا دوماً؟

يصل إلى مكتبه، الباب ذاته منذ عشرين سنة.

عشرون عاماً.. وفي كل عام يمضي ثلاثمئة وثلاثة عشر يوماً، ويده على مقبض هذا الباب.

عشرون عاماً.. وهو مسؤول عن مكتب السيد وجيه، وعن كومة من بشر وكومة من مفاتيح.

يشعر دوماً كأنه دباسة ورق كانت لامعة حديثة، وُضعت على طاولة مديره منذ عشرين عاماً في لحظة ولع عابر ثم نسي الجميع سبب وجودها.

لا يدخل مكتبه.
يغير رأيه ويتجه إلى مكتب السيد وجيه.
يدير المفتاح، ويفاجأ بأن الباب غير مغلق كما تركه قبل سفره خلال عطلة نهاية الأسبوع.

ربما يكون قد نسي إغلاقه، فهو يسهو أحياناً. لا ليس أحياناً، بل كثيراً.. يسهو، ينسى، يغلط، يكسل، يهمل، يقترف حماقات.

وفي كل مرة كان يعتقد أن الحظ حليفه، فلا ينتبه السيد وجيه، وكان يحمد الله على ذلك، وعلى أنه منحه القدرة لتدارك الوضع قبل فوات الأوان في كل مرة.

لكنه كان مخطئاً.

لم يكن هناك داع لأن يحمد ربه، أو يشكر حظه؛ على الأقل ليس لهذا السبب. لأنه اكتشف في اليوم الثاني بعد السبعين، بعد أن ووري مثواه الأخير في هذا المكتب، أن السيد وجيه يسهو كثيراً، وينسى ويغلط ويكسل ويهمل ويقترف هو أيضاً حماقات، و ... ولماذا يصر أن يلقبه "بالسيد" وجيه، حتى بينه وبين نفسه؟

بقدمه فتح الباب، ودخل مكتب وجيه.

(3)

كانت جالسة على المكتب، لا ترتدي سوى حذاء جلدي طويل، ذهبي اللون.

حذاء.. وحمرة قانية تستر شفتيها العاريتين ..

تظاهرت بأنها لم تره.

الاستثارة جعلت حلمتيها تنتصبان بشدة، أو لعلها برودة التكييف في المكتب.

تحنط عند المدخل .. ثم أسرع وخرج، مقفلاً الباب خلفه.

قلبه يخفق.

يخفق بشدة.
إذاً لديه قلب ليخفق بشدة.
قلبه اخترق صدره.
حلمتاها اخترقتا صدره ورئتيه، فتسرب منهما زفير عتيق، قديم، غَبِر...

لحظات، وفتح الباب مرة أخرى.

أراد أن ينطلق إليها، يتحسس كعب حذائها والزغب الناعم، الأشقر، على فخذيها.
أراد أن يرشفها ويستنشقها، يعضها ويلتهمها، أراد أن يصعد إلى السماوات ويتسلق تحجر حلمتيها.
أراد أن يشفط قطرات وجودها قطرة..
فقطرة ..
فقطرة ..
لكنها اختفت.

(4)

حاول جاهداً شد تلك الثواني من الماضي
واستحضارها إلى الحاضر المستمر.
شتم تردده، ارتباكه، جبنه.. الترهل في كرشه.

كم تمنى أن يكون ما ليس بإمكانه أن يكون.. كم تمنى مجرد أن يكون.

لكنه، هو، هو ذات نفسه.

نفسه التي لم تتغير عندما تألقت سيارته في موقف المدير.

نفسه التي تمضي ثلاثمئة وثلاثة عشر يوماً في العام تصعد المصعد ذاته، وتدير المفتاح ذاته لتفتح المكتب ذاته، وتجلس الجلسة ذاتها، وتبدي الآراء الاجتماعية والدينية والسياسية ذاتها، وتستخدم النعوت ذاتها لشتم الزوجات ولوم الحكومات .. مثلها مثل 99.9 من سكان العالم العربي!!!

كيف لنفسه أن تعرف بأنها ستتعرض يوماً لغزو كهذا مثير، رائع؟ بل حاد.. مؤلم.. لاسع، كملايين الدبابيس الصغيرة تخترقه، تحرقه، من الخارج إلى الداخل إلى الخارج.. تذكره بأمور تركها في صناديق ألعابه، في حضن أمه، في فراش حب، عندما كان يحب.

مر بذهنه طفل يجلس على الرمل يتابع بذهول برقاً يرسم خلجات كهربائية تمتد من أطراف السماء إلى أطراف المحيط...

ويوم قريب بعيد عندما كانت تكفيه ريشة حمام متسخة ليحلم بمدن رمادية تغازلها الغيوم، وأخرى زرقاء تلمع تحت أطراف أصابع قدميه ...

تذكر طفلاً لسعته نحلة، فاكتشف مساحات جسده عبر انتشار التورم المؤلم ...

كيف جنى على نفسه لهذا الحد؟

بل هو لم يجن على نفسه، هي التي جنت عليه. هو يريد أن يحلم، أن ينطلق بخطوات جريئة ليمشى على سطح الماء، على سطح الهواء، على سطح النار.

يريد أن يحيا حياة لا دخل لنفسه فيها... نفسه التي تزنّ عليه، تعكر عليه، وتمارس رقابتها حتى على ما يصوره له ذهنه، عندما يسرح قليلاً، أو كثيراً، عن عالمه، لتعيده مشحوطاً من ياقته.

(5)

جلس لاهثاً خلف مكتب المدير، وتظاهر بأنه يتحدث بالهاتف، يتخذ قرارات هامة.

أول قرار كان بفصل خالد المزعج، الثرثار، الذي يشاركه مكتبه، والذي كالطفل الصغير، يبكي ويركض يشتكي للمدير في كل صغيرة.

طار خالد!

ثاني قرار هو فصل مريم، لأنها لا تحبه، ولا تعامله بما يحظى به الباقون. حاول مراراً التقرب إليها. يمازحها، فتخرج المزحة ثقيلة، سمجة. يقبل يدها احتراماً، فتسحبها وتبتعد عنه. يسحب لها الكرسي لتجلس عليه، فتصرخ به وكأنه يود لها أن تقع. وفي كل مرة كانت تحرجه أمام الجميع.
طارت مريم!

كالطفل أخذ يعبث ويدير الكرسي الوثير عشرات المرات. يدور ويدور حول نفسه، حول أفكار وخواطر تناثرت، تبعثرت، تطايرت، انتشرت على الطاولة، والكراسي، والأرض، والتصقت بالستائر والسجاد والمستندات.
يدوخ، ويلهث، ويدير الكرسي، ثم يستقر وجهه أمام خياله في الشباك.

ثالث قرار هو ..
هو في الأساس أول قرار فكر فيه، ولكنه تحايل على نفسه، لعل نفسه تعتقد بأنه أكثر نضجاً. أهم قرار هو تعيين صاحبة الحذاء الذهبي سكرتيرة خاصة به. تجلس في حجره، ولا تلبس سوى ذات الحمرة القانية، وحذاء طويل.. بلون أسود.. أحمر.. أخضر.. أصفر.. برتقالي مع أزرق، وألوان كثيرة تبدعها لأجله، يتعرف على العالم من جديد عبر

مساحات ساقيها المستورة، ومساحات ساقيها المكشوفة، في مكتب بارد التكييف!!

(6)

استشعرها، قبل أن يراها.

أو بالأحرى، أحس بنفسه الخبيثة تريد أن تبعده مرة أخرى عن هذا العالم الرائع، فعرف أنها عادت.

كان شعوره بمتعة وجودها، بدون أن يراها، شعوراً شديداً، قوياً، حياً، بالكاد يطاق.

هذه اللحظة التي هو فيها الآن، تستحق كل سنوات الانتظار ..

تستحق كل الكلام المؤذي الذي انهال عليه من وجيه.

تستحق كل إهانات مريم، وسخافات خالد.

تستحق متاعب الأولاد الثلاثة والزوجة والفواتير والمواصلات والزحام والديون، والقميص الذي خطر له اليوم أن يكويه، والجوارب التي غسلها ليلة البارحة قبل النوم .. و ..

كم هو أحمق!

حوله طير ذهبي مغناج، وهو يفكر بالزفت وجيه وبالكي والجوارب!!

هذه اللحظة تستحق الكثير. لعله هو الذي لا يستحق.

وجودها، مجرد وجودها في الغرفة ذاتها يكفيه.

لا يريد المزيد، لا يريد..

لا يريد أن يفسد هذه اللحيظة التي دفع ثمنها ملايين من لحظات تافهة، جوفاء، بلهاء، حمقاء.

لن ينظر إليها مرة أخرى.
لن يلتفت.
إنه يراها داخل كيانه، وسيظل يراها.

إنها تلعب بكافة أوتار جسده، وهمساته، وأوجاعه.
لن يشعر بعد الآن بثقل حياته الخفيفة، الفارغة. يمكنه الآن تحمل عشرين، بل أربعين، عاماً آخر..

❖

طـاب مـسـا ؤكـم

أمارس تلك العادة السرية التي لا أعرف حتى الآن متى وكيف أتقنتها، أراقب خلسة كل من حولي، وأدوّن المشاهد بخيوط من دخان النارجيلة التي لا أعرف أيضاً متى وكيف أتقنت طقوسها.

ترددي على المقاهي، وسنوات من التجارب، علمتني اختيار أكثر أبراج المراقبة كشفاً لمحيطي أينما جلست.

هذا المساء، ككل مساء، تتراكم السيارات أمام المقهى، ونتراكم نحن المتسكعات البشرية في مقاعده.
أستنشق الهواء النقي، الرطب، الذي تنشره المياه المالحة، وأجلس.
بمجرد أن أتعرش موقعي، تأتيني النارجيلة كالعادة. لا داعي للتفوه بكلمة، الجميع يعرفني، ويعرف احتياجاتي من تنباك، وشاي أسود أغرقه بالسكر، وزجاجة مياه معدنية كبيرة، باردة جداً وإلا رفضتها.

أتفرغ للمراقبة فقط بعدما تجهز حولي كافة طلباتي، كي لا ينتزعني شيء من نشوتي هذه حتى نحترق تماماً .. أنا والحجر.

لحظة دخول المبسم فمي، أغدو شفافاً، لا يرى الوجود وجودي. كأني أمام تلفاز ضخم، شاشته مئات البوصات، أغير القنوات بحركة خفيفة من رأسي، حركة طفيفة من عيني.. شمالاً، يميناً، شمالاً ..

أراها شمالاً، لا شيء يميزها، أعرفها ولا أعرفها.

أراقبها تتفحص شعرها.

أراقبها تعدل تنورتها فتكشف عن ساقيها.

شرحت لي صديقة يوماً أن ثمة فرقاً دقيقاً للغاية بين الإغراء الأنثوي والابتذال (أهدرت وقتاً كثيراً في البحث عنه).

تبتسم.

أتعرّف على ابتسامتها التي تحملها معظم نساء هذه المدينة.

تمشي واثقة خطوتين، ثم يقع موبايلها. أراقبها وهي تنحني بحذر لتلتقطه. تتظاهر، بدون جدوى، باللامبالاة، كي لا تشعرنا بأنها تنحني بحذر. ثمة فرق دقيق جداً بين الإغراء والابتذال، لا يهمني لحظتها البحث عنه.

تتأرجح على كعبها العالي بين جرأة مبالغة وانعدامها. تترصد نظرات الإعجاب، وتزداد تمايلاً ودلعاً بقدر ما تعتدي عليها تلك النظرات.

أشعر بإيقاع خطواتها يزلزل جبالي.

تبتعد، فأضطر تغير القناة بنظرة إلى اليمين.

يمشى، بل كأنه يحلق فوق الأرض كشبح، رجل يلبس ضوء القمر، يتأبطه جسد داخل غيمة كثيفة سوداء، لا دليل على هويته سوى حذاء ناصع البياض، ذي كعب عال وثقيل من فلين. هل ترتدي هي الحجاب، أم أنها تجعلنا نحن نرتديه لتحجبنا عنها؟

أغير القناة بنظرة إلى اليسار .. سروال جينز ضيق جداً بداخله شاب فيليبيني. أحاول تجاهل الرؤوس التي تلتفت إليه. أقنع نفسي بأنها فقط فضولية مثلي.

أغير القناة يميناً... رجلان آسيويان تتشابك أياديهما. في طفولتي، وحتى أيام الشباب في البلاد، كان هذا تصرفاً طبيعياً تشدنا إليه صداقات حميمة، طويلة ووطيدة، لا دخل لها بالجنس بأي شكل من الأشكال. جعلتني سنوات الدراسة في الجامعات الأمريكية أتقزز منه.

أغير القناة..
أمامي... نساء "مستشقرات" كذباب حول وليمة غنية ترتدي بزة رمادية، وتحمل مسبحة من فضة وأحجار العقيق.

أغير ..
أنظر إلى الأعلى.
خمس شاشات تلفاز تراقبنا، نحن المراقبين، من سقف المقهى. تتعارك قنواتها لتحظى برضى مدخني السلوم المخضرمين، ومدخني التفاح الهواة مثلي.

"... كانت هذه الأنباء بالتفاصيل، طاب مساؤكم."

يهرب دخان النارجيلة من أنوف وأفواه ضجرت منها المقاهي.

تهتز رؤوس كثيرة حولي، لست أدري، أطرباً للغنج الأنثوي، الذي يجتاح خواء حياتنا عبر شاشات التلفاز، أم أسفاً من أن تفسد مجرد كلمة "أنباء" مزاجنا الجماعي الرائق؟
لم أعد أميز بين طرب، ونشوة، وأسى.

كأني خارج التلفاز، لم أعد أميز اجتياحاً من احتلال من إعلان.
كأني داخل التلفاز، لم يعد يميزني لا اجتياح، ولا احتلال، ولا إعلان.

كأني أنا كل من بالمقهى، وأنا مجرد مقعد قديم، مهترئ.
كأني أنا حجر النارجيلة، انتهى الكون من تدخيني.

كأني أنا دخان الحياة المتصاعد بكثافة كلما مزقت أطراف الليل براءة النهار، وبراءة كل حلم جميل.

❖